

مصطفى محمود

الغالبون

الطبعة الثامنة



دار المعارف

)))))) ())))))))

أنا الدكتور م . داود دكتوراه في جراحة المخ والأعصاب من جامعة برلين .. أخطو الآن نحو الستين من عمري وإن كانت المرأة التي تطل على من ركن الدولار تقول غير هذا .

تجاعيد ... وعظام بارزة .. وأنامل معروفة .. وبشرة مغطنة .. وخذ هضم .. وشعر أشيب .. وأجفان وارمة .. وعينان حمراوان تطل منهما نظرة مرتاعة . تلك النظرة المرتاعة دائماً .. كأنني كهل في الثمانين بخطو خطوته الأخيرة نحو النهاية .

لا .. بل هو ذلك السر ..

ذلك السر الرهيب الذي ظللت أحمله بين جنبي طيلة هذه السنوات وأحمل معه تلك المسئولية الجسيمة ..

وإلى متى .. ؟ !

لقد جاء الوقت .

نعم .. جاء الوقت لأتكلّم وأسطر في هذه الأوراق خفياً هذه السنوات
الرهيبية التي عشتها .. وأكشف ذلك السر .

وليعدرنى من تقع في يده هذه المذكرات اذا وقع على اصطلاح لم
يفهمه .. وليغفر لى السرعة التي أكتب بها تلك الأوراق فما بقى في العمر
فسحة ..

وهأنذا أكتب الآن وأنا ألهث وأشعر بدبيب الموت يدب مع كل
نبضة .. لكأنما الفناء سوف يلحقنى قبل أن أفرغ من كشف هذا السر
الرهيب .. ولوحدث ذلك .. ياإلهى .. من يدري؟ .. ربما عاشت
الإنسانية أجيالا أخرى من الظلمات قبل أن تتجلى تلك الحقيقة الثمينة فلا
يكشفها أحد .. وتظل الحياة سراً مستغلقةً ملغزاً إلى الأبد .
ودعوني أبدأ .. فالقصة طويلة .

ولأبدأ من البداية ..

من عصر ذلك اليوم البعيد من ست سنوات .

* * *

في شتاء عام ١٩٥٨ في يوم أحد غائم رطب في غرفة الكشف بالعيادة
وقد شربت قهوتى كالمعتاد حينما طرق الباب أول زائر ، شاب نحيل صفراوى
النظرات ، ذو وجه شاحب .
كدت أقول له من اللمحة الأولى الشكوى التي يشكو بها .. وأصف له
الدواء دون حاجة إلى فحص .

كان وجهه صفحة مكشوفة معروفة تنبئ عن مصران غليظ ومرارة وسوء
هضم .. ذلك الثلاثى المألوف في بلادنا .

ولكنه لم يشك بأى شكوى من هذه الشكاوى وإنما قدم لى رويشتة عليها
تحويل من طبيب معروف .. وعلى الرويشتة قرأت خمس كلمات :
اشتباه ورم في المخ .. للفحص .. والعلاج .
ورم في المخ ؟

ما الذى جعل الطبيب يفكر في احتمال ورم بالمخ ؟
وسألته عن شكواه فقال إنه يعانى من صداع مزمن وزغللة في العين ..
أعراض عادية يمكن أن توجد في ألف مرض ومرض ..
سوء الهضم يمكن أن يؤدى إلى صداع .. الإمساك المتكرر .. فقر الدم ..
الجيوب الأنفية .. الأضرار التالفة .. ضغط الدم .. عدم استخدام
النظارة في القراءة .. إدمان الخمر .. القلق النفسى .. كل هذه أسباب
يمكن أن تؤدى إلى صداع وزغللة . ما الذى جعل الطبيب يفكر في ورم
بالمخ ؟

هذا تشخيص خطير لا يصح فيه الأخذ بالشبهات .

ولم يكن أمامى وقت لأتساءل وأتأمل .

ومضيت في الفحوص المألوفة .. كشف دقيق لقاع العين .. صورة أشعة
للدماغ .. قياس ضغط للسائل الشوكى .. وإجراء رسم كهربائى للمخ .
ومن خلال منظار قاع العين مضيت أتأمل العصب البصرى ..
الشبكية ، وكانت النظرة الأولى مؤكدة لظنى .. لم تكن هناك أى علامة
من علامات ورم المخ وارتفاع ضغط السائل السحائى .. كان كل شىء يبدو
طبيعياً .

وتشجع المريض وهو يرى الانتسامة على وجهى وسألنى :

- كيف الحال يا دكتور .

- خير .. كل خير .. أنا لا أرى أمامي أى شىء .

- متشكر .

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى اضطراب :

- ولكن الدكتور كان عنده اشتباه .

- أى اشتباه ؟ أنا لا أرى أمامي أى مرض مريب .. وعلى أى حال

سأكشف عليك بالأشعة لتطمئن .

وبينا كانت المريضة تجهز غرفة الأشعة ، كنت أكتب ملاحظاتي

كالاعتاد فى ورقة الكشف .. وكان يجاوب عن أسئلتى وقد زال التوتر من

نبراته .. وتراخت عضلات وجهه المنقبضة .

- اسمى راغب دميان ، مهندس كهرباء أقيم فى ١٥ شارع ابن الوليد

بجداث القبة ، أعمل حالياً فى وحدة أبحاث الراديو فى قصر العيني .

- متزوج ؟

فأجاب بابتسامة وهو ينظر إلى دبلة الخطوبة فى يده اليسرى :

- فى الطريق .

- منذ متى وهذه النوبات من الصداع تعاودك ؟

- منذ شهرين .

- كيف بدأت أول نوبة ؟

- كان ذلك فى ليلة أحد .. وما زلت أذكر اليوم والساعة وكأنها حدثت

الآن .. كنت فى طريق عودتى من السينما والليل شديد الظلام والقمر فى

خسوف كلى والأولاد يجبطون على الصفيح .. هذه العقائد الخرافية الشائعة

فى الأحياء البلدى .. وأنا أتلفت حولى فى شرود أفكر فى القيلم .. وأنظر

حولى فى البيوت والمآذن والحقول فيخيل إلى أنها مرسومة بالفحم وأنها غير

حقيقية .. وأرى الدنيا كلها بعين حائلة وسنانة فيخيل إلى أنها وهم ..

خيال .. وأن ..

وكنت أكتب مايقوله باختصار حينما سمعته بسكت فجأة .. ورفعت

وجهى لأراه يميل فى ضعف وهو يغطى عينيه .

وبعد لحظات كان فى غيبوبة تامة .. يتنفس بحسرة وبهتة ، وقد

اتسعت حدقاته كأنما يعانى فرعاً هائلاً لا حد له ، وتشنجت أطرافه وتصلبت

كأعواد من حديد .

وبينا كنت أقوم بإسعافه .. لاحظت أن أطرافه تسترخى شيئاً فشيئاً ..

وأن عينيه تنغلقان فى هدوء .. وأن فمه يتحرك لتخرج منه كلمات واضحة ..

لم تكن كلمات عربية .. ولكن كلمات أجنبية .

ولم أجد صعوبة فى اكتشاف أنها لغة أسبانية .

كان يتحدث فى غيبوته بلغة أسبانية سليمة .. وكان يتكلم عن صديق له

اسمه « دون سباستيان كاميللو » مضارع فى حلبة ثيران ، وكان يبدو أنه على

وشك البكاء .. وظلت نبراته تخفت حتى أصبحت همساً وفحيحاً مكتوماً ..

ثم سكت .. وتخضل وجهه بالدموع .

وكنت أنظر إليه فى ذهول .. وقد شلت غرابة المفاجأة ذهنى وبعد دقائق

رأيتة يفتح عينيه .. وينظر إلى كأنه عائد من عالم آخر وتدرجياً بدأت تظهر

فى نظرتة إشراقة الإدراك .

ثم رأيتة يمسك بيدي فى رقة معتذراً ، وفى صوته رجفة .

- لقد رأيت بنفسك .. إنها النوبة ..
والتقط أنفاسه ثم عاد يقول بصوت باك :
- إنها تفاجئني في أى مكان .. بدون إنذار ..
وراح يفرك يديه فى استسلام ..
وسأله :

- هل أخذت شهادتك من أسبانيا ؟

ونظر إلى فى دهشة لسؤالى المفاجئ :

- لا .. أخذتها من مصر .. أنا لم يسبق لى أن سافرت خارج القاهرة
وقلت مندهشاً :

- ألم تتعلم الأسبانية ؟

وأجاب فى دهشة أكثر من دهشتى :

- أنا لا أعرف حرفاً واحداً فى الأسبانية ..

ثم أردف فى ارتياب :

- لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- لأنك طوال النوبة كنت تتكلم الأسبانية ..

وبدا عليه أنه لا يفهم ما أقوله .. ونظر إلى مذهولاً ..

كان من الواضح أنه لا يذكر حرفاً واحداً مما قاله فى أثناء غيبوبته

وجلست أدون ملاحظاتي عن هذه النوبة العصبية الغريبة .. وقد تحرك فى

فضول لا حد له ..

لم يكن ذلك الذى أراه أمامى .. حالة صراع .. ولا حالة ورم بالمخ ..

وإنما حالة غامضة لا عهد لى بها ..

فى ذلك اليوم لم أستطع أن أكشف على أى مريض آخر ..
كان ذهنى قد توقف عند تلك الحالة الغريبة ..
وكانت أفكارى تدور وتدور ثم تعود لتتركز عند راغب دميان ، وفى
البيت لم أستطع أن آكل لقمتى دون أن أفكر ..
وحينما ألقيت بجسمى آخر الليل على الفراش ظلت مفتوح العينين أفكر
وأعيد النظر فى هذه الحالة الغريبة ..

هل يمكن ؟

هل يمكن أن يجيد الإنسان لغة لم يتعلمها ..

وإذا لم يكن هو الذى يتكلم ..

فمن كان يتكلم ؟

وكيف يوجد اثنان فى جسد واحد ؟

هل هى الخرافة التى يسمونها المس الروحى ؟

غير معقول ..

هذه تخاريف لا يمكن أن تقال فى عصر الذرة ..

لم أكن أعتقد فى شيء اسمه أرواح ، فأنا بحكم دراستى أعلم أن كل

شيء حقيقى فى الدنيا يجب أن يكون قابلاً للإدراك بالحواس .. أما ما لا يرى

ولا يُسمع ولا يُشم ولا يُحس ولا يُعقل فهو ببساطة غير موجود ..

الحياة نظام ... وقوانين ... ومقدمات ... ونتائج ... وأسباب ..

ومسببات ... لا مكان للتخمين والحدس ..

لا مكان للتخريف .. وافترض أشباح لا وجود لها ..

نحن نعيش فى عالم منطقي معقول .. وما يحدث حولنا يمكن رصده فى

إحصاءات ومعادلات ويمكن دراسته وملاحظته والتنبؤ به
لا مكان لهذه التخاريف .

كنت أرفض بشدة هذا التدجيل . . .

ولكنني في الواقع . في أعماق نفسي لم أكن مستريحاً .

كنت أشعر أن ما قلته ليس هو كل الحقيقة .

نعم .. فهناك أشياء كثيرة غير مفهومة .

هذا الراديو « الترانزستور » الصغير في حضني الذي لا يزيد حجمه على

علبة كبريت يلتقط من الهواء كلمات .. هذه الكلمات كانت تسبح أمواجاً في

الفضاء .. ومن قبل أن أفتح هذا الراديو .. كانت هذه الأمواج تدرع

الفضاء حولي .. لا ترى .. ولا تسمع .. ولا تحس .. ولا تلمس .. ومن

قبل اختراع هذه العلبة الصغيرة السحرية .. كان الفضاء مشحوناً بهذه

الموجات اللانهائية بدون أن تدرك أو ترى .. فهل معنى هذا أنها كانت دجلاً

وهذاً لا وجود له .

نحن في العادة لا نعترف إلا بما نراه ونلمسه .. وهذا غرور .. فما أقل

ما نرى ، وما أقل ما ندرك في هذه الدنيا .

هاهنا بين يدي في هذا الراديو الصغير بتقنية يسيرة من المؤشر أسمع

إشارات تلغرافية واضحة من محطات مختلفة من العالم .. لو كانت عندي

شفرتها لعرفت ماذا تقول .. ولكنني بدون هذه المعرفة لا تبدو هذه الإذاعات

إلا مجرد دقات وشوشة .. وبالمثل هذا « الوش » الذي أسمع حينما أحرك

مؤشر الراديو مرة أخرى قد لا يكون وشاً .. قد يكون لغة أخرى لا أعرف

شفرتها .

كانت فكرة عابرة .

ولكنها بدت لي مخيفة .

فقد بدأت الرياح تزجر في الخارج والجو يبرد .

وساءلت نفسي . هل هي ضجة .. مجرد ضجة .. أو أنها هي الأخرى

لغة ؟ وإشارات مثل إشارات « موزس » لها شفرتها ومفتاحها ؟

نعم .. من يدري .. ربما كانت لغة كونية ومفردات وكلمات .. كل ما في

الأمر أننا نجهل شفرتها .

وانفتحت ضلفة النافذة فجأة ومرقت ربيع باردة .. فانتفضت في

مكاني ، وجذبت الغطاء في رعب وأنا أنظر إلى البرق الذي شق ظلمة

السماء كسيف لامع .

نعم ..

كل هذه الأحداث يمكن أن تكون لغة إلهية لا نعرف شفرتها ..

خلف هذه الظلمات المحجبة .. من يدري .. كم من الأمواج

والإشعاعات مما نعلم ، ومما لا نعلم !

وخلف هذا الصمت الأبدي .. وراء هذه المناهات الشاسعة من

الفضاء .. كم من الأصوات هناك مما لا نسمع .. ومن الأرواح ، ومن

الأنبياء ؟

ولنتابني دعر ..

وأخذت أتلمص بعيني من تحت الغطاء .. وقد بدت لي كل قطعة

أثاث في الغرفة السابحة في الظلام وكأنها كيان له لغته وله روحه .

وتسلل الذعر إلى أوصالي فجمدها وشّلها .

واستجمعت كل شجاعتى .. ومر وقت خلته ساعات وأنا أتسلل
بأصابعى إلى زر النور لأضغط عليه .
وأضاءت الغرفة بنور باهر .. وتصيب العرق بارداً على جسدى ..
وتنفسيت الصعداء .. وأنا أتلفت حولى فى قطع الأثاث المألوفة .
كانت كل قطعة فى مكانها .. جامدة ميتة كما عهدتها .. بلا روح ..
كنت أتخيل أشياء لا وجود لها .
يارب ..

ومسحت عرقى وشعرت بالسعادة وأنا أنظر إلى غرفتى المألوفة وقد
استقرت كل قطعة أثاث فيها خرساء لا تنطق .
كنت أشعر بالسعادة لأنى أنا الحى الوحيد فى هذا الموات .
انا الذى أهدد هذا الوجود .. وهو لا يملك أن يهددنى .
أستطيع أن أحرك أى قطعة أثاث من مكانها وألقيها فى الشارع . ها هنا
بيتى .. وغرفتى .. وأشياءى .. كلها ملكى .
وشعرت أنى أسترد حريقى إزاء هذه المفردات الجامدة المتناثرة وعادتنى .
الثقة بنفسى ..
وابتسمت ..
ثم ضحكت ..
ثم قهقهت فى عصبية على تلك الأفكار المستيرية التى راودتنى . كانت
سريحة مضحكة فعلاً .
كيف وصلت لى الفبركة إلى هذا المدى ..

إن الظلام والسكون والوحدة .. والأعصاب المتوترة .. يمكن أن تفعل
بعقولنا الأفاعيل .
ولكن ..
ولكنى كنت مازلت أفكر . وقد تذكرت أحداث اليوم العصيب كله .
كانت القضية كلها مازالت هناك بلا حل . ذلك المريض الغريب ..
راغب دميان ..
كان لا بد من تفسير ..

لم يكن فى إمكانى أن أنام دون أن أعثر على تفسير .
وأشعلت سيجارة .. وعدت أفكر فى هدوء وأتوسل بكل ما أعرف من
محصول علمى فى جميع المجالات .
إن الأصوات .. جميع الأصوات فى هذا الكون لا تفنى .. وكل ألوان
الطاقة يتحول الواحد منها إلى الآخر ولكنها لا تفنى .. الكهرباء تتحول إلى
حركة والحركة إلى حرارة والحرارة إلى ضوء .
والكبريت حينما يحترق ويختفى هو فى الحقيقة لا يختفى ولكنه يتحول إلى
غازات ونار وأبخرة .
كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .. وإنما هو يتحول
ويتبعثر ويتشتت .
ولو أمكننا بطريقة ما أن نجمع ما يشتت فى الكون ونعيده إلى صورته
الأولى كما نجمع أمواج اللاسلكى من الهواء بجهاز الراديو الصغير ونعيدها إلى
صورتها الصوتية الأولى .: لأمكننا أن نعرف الكثير .
لأمكننا أن نجمع من الفضاء صوت الإسكندر المقدونى . ونسمع

ما كان يقوله على أسوار عكا ..

نعم ..

من يدري ..

هذا احتمال .. مجرد احتمال .. مجرد نظرية ..

قد يكون في مخ ذلك المريض العجيب .. راغب دميان .. توليفة
عصبية خاصة تمكنه من جمع هذه الأصوات كما يجمع الراديو الأمواج
اللاسلكية من الهواء ويعيد نطقها ..

وقد يكون ما حدث لحظة الإغماء .. أن هذه التوليفة العصبية جمعت
من الهواء تلك الكلمات الأسبانية التي كانت مفقودة مشتتة في الفضاء ..
وأعلنت نطقها ..

نظرية خيالية ولكنها نظرية على أية حال ..

وهي ليست بلا أساس ..

إنها بداية خيط ..

بداية واهية .. ولكنها بداية ..

واسترحت بعض الشيء ..

ومضيت أدندن في النافذة ..

وأدبرت البيك آب .. ورحت أعبث في صف الأسطوانات على الرف
باحثة عن موسيقى خفيفة تناسب وقت النوم .. ولكن الصف انفرط من يدي
وسقط على الأرض ..

وانكسرت أسطوانة قديمة ..

ورحت أجمع القطع المكسورة ..

وفي النور قرأت اسم الأسطوانة « بكائية أسبانية في رثاء المصارع
الأسباني الشهير دون سباستيان » ..

دون سباستيان ؟

نفس الاسم الذي نطق به الرجل وهو مغمى عليه !

ولم أفهم معنى هذا كله ..

وكنت مازلت أنظر في قطع الأسطوانة المكسورة .. ويداي ترتجفان ..

وكان قلبي يدق بشدة وأنا أستخرج الشريط من الجهاز وأسطه أمامي
وأفحصه بعدسة مكبرة ..
أخيراً ..

كانت هناك تلك الذبذبة العالية غير الطبيعية تكاد تمزق التسجيل .
ذبذبة تبلغ قوتها ٩٠ « ميكرو فولت » تظهر مرة كل ثانية وسط
الذبذبات العادية القصيرة التي تتواتر بسرعة في التسجيلات المألوفة .
وكان من الواضح من شكل الذبذبة العالية وتواترها البطيء المنتظم أنها
لا تدل على ورم مخي أو صرع أو التهاب أو أى مرض مخي معروف .
وعدت إلى مراجعي ونشراتي ومجلاتي الطبية أبحث عن حالة مشابهة
ولكنها كانت ساعات طويلة مضاعة .

لا إشارة من قريب أو من بعيد إلى سابقة مماثلة .
مازلت في مكاني متروكاً في غموض حيث بدأت .. لاخيظ من ضوء .
بعد كل الفحوص الطبية والتبع الإكلينيكي الدقيق .. مازلت في
مكاني .

كل ما استطعت أن أكتشفه أن هناك شيئاً ما .
الرسام الكهربائي أكد لي أن هناك شيئاً ما في مخ هذا الرجل .. ليس
ورماً ولا مرضاً من الأمراض المعروفة التي درسناها ، ولكنه أيضاً ليس
الطبيعة السوية للمخ العادي ..

فما هو ذلك الشيء ؟

هل أعود إلى تفسيراتي الفلسفية فأقول إنه مخ به توليفة عصبية خاصة
مثل الراديو تلتقط الأمواج وتذيعها .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX ؟ XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

كنت أضع أمام مكتبي نتائج الأشعة والتحاليل والفحوص التي
أجريتها ، وكنت أنظر إلى صور الأشعة صورة بصورة وأتمعننا بدقة .. وأمر
بأصبعي على كل ركن في الجمجمة التي تبدو ظلالها في الصور .
لا أثر يقود إلى طريق تشخيص .. لا دليل .

الصور جميعها طبيعية . الفحوص الإكلينيكية لا تلقى أى ضوء على
الحالة . جميع الاختبارات تشير إلى شخص طبيعي مائة في المائة . الأمل
الوحيد الباقي كان الرسم الكهربائي للمخ ..

ذلك الجهاز العجيب « الألكتروانكفالوجرام » الذي وصلني من أمريكا
منذ أيام .

كانت هنا فرصته الذهبية ليكشف عن إمكاناته .

ذلك الجهاز الذي يسجل النشاط الكهربائي للمخ ويرسمه على شريط .
كل نبضة كهربائية تخرج من المخ ترسم في شكل ذبذبة على الشريط .

أم أنه لا مرض هناك ولا توليفة خاصة .. كل مافى الأمر .. أن راغب
دميان استمع إلى هذه الأسطوانة الأسبانية كما سمعتها عدة مرات فرسبت
معانيها وأسمائها في عقله الباطن وعادته هذه المعاني والأسماء وهو مغمى
عليه فراح يهذى بها في إغمائه .. كما نهذى بذكرياتنا في أحلامنا .
ولكنه لم يكن يهذى .

لقد كان يتكلم أسبانية سليمة ، وبروى أحداثاً وقعت لذلك المدعو
« دون سباستيان كاميللو » .

وكانت في الحديث حيوية من ينطق لغة بألفها وينطقها كما ينطقها
أهلها .. لا بلبله عقل يهذى .
كان في الأمر شيء ..
كل التفسيرات غير كافية .

كنت أغوص في ألغاز متشابكة لا نهاية لها .. وأفكر وقد انتهيت من
مرضى العيادة .

وجلست أنتظر راغب دميان على ميعاد خاص .
واكتشفت فجأة أن ساعة كاملة مرت على ميعاده دون أن يحضر .
وهي ليست من عاداته فهو دقيق في مواعيده .
وانتابني قلق راح يتزايد شيئاً فشيئاً .
ورأيت نفسي أنتفض من مكاني وأختطف المعطف من الشماعة وأسرع
بالخروج .

وأمام المنزل ١٥ شارع ابن الوليد بجذائق القبة نزلت من العربة .
ورحت أتلقت .

كان هو نفس العنوان الذي أملاه لى في ورقة الكشف .
سألت البواب عن شقة المهندس راغب دميان .. فقال إنها شقة ١٢ في
الدور العلوى .. آخر دور في العمارة .

وكان المصعد معطلاً .. فصعدت ستة أدوار على رجلى .
كنت أصعد ببطء .

وأتوقف من درجة لأخرى لألهث وألتقط أنفاسى .

وبينما كنت أستاذ على درابزين السلم وأستريح لحظة .. لاحظت
سلسولا « من الماء نازلا على درجات السلم من فوق .
وصعدت درجة درجة مع هذا « السلسول » الغريب وأنا أنظر إلى فوق
فضول متطلعا إى مصدر هذا الماء .

وكان الماء ينزل بشدة أكثر وأكثر ويتصاعد منه البخار كلما صعدت
قترباً من مصدره مما يدل على أنه يتدفق من مصدر ماء ساخن .
وأمام شقة ١٢ كان الماء والبخار ينسابان بشدة من تحت عقب الباب .
وانتابني القلق . فهذه شقة راغب دميان .

ووضعت أصبعى على الجرس فى اضطراب ، ودققت مرة ثم دقة أخرى
يلة .

ثم رحت أدق دقا متوالياً بانزعاج ، وأخبط على الباب .
لا يجيب ...

لار صوت بالداخل سوى صوت حفية مفتوحة يتدفق منها الماء بشدة .
ووقفت مسمراً فى مكافى نهياً لخيالات متضاربه .

ماذا يمكن أن يكون قد حدث .. ماذا يجري بالداخل .
وما الواجب عمله .

أأظن واقفاً هكذا أم أكسر الباب .. أم أبلغ البوليس ؟
ولم أجد حلاً سوى أن أهول نازلاً .. وأبلغ البوليس .

* * *

وأمام الباب المكسور .. والشقة الغارقة في طوفان الماء .. تقدمنا أنا
وضابط البوليس إلى حيث يتدفق الماء .. من الحمام .
كان البانيو مملوءاً على آخره ، والحنفية مفتوحة .. والماء يسيل على
جوانب « البانيو » ليملاً الشقة .. والسخان مشتعلاً .
وانتقلنا من الحمام إلى غرفة النوم .

وفي غرفة النوم .. فوجئنا بامرأة في ملابسها الداخلية منحنية على
التسريحة ، وفي يدها ملقاط حواجب .
وتقدم الضابط في حذر ورفع رأسها .. كانت شاحبة ممتعة اللون وعلى
وجهها نظرة فزع هائلة .. وقد فارقت الحياة .
وأمسك الضابط بالتليفون ليبلغ النيابة والطبيب الشرعى . هل كانت
جريمة قتل ؟

وكيف .. وبأى سلاح .. ولا نقطة دم واحدة .. ولا جرح .. ولا آثار
خنق .. ولا دلائل عنف أو اشتباك دموى .
الأثاث مرتب .. مما يدل على أن الميتة كانت في طريقها الطبيعى لتأخذ
حماماً .. وأنها أشعلت السخان وفتحت الحنفية ليملاً البانيو .. وبينما كان
البانيو يمتلئ كانت هى تجمل حواجبها بالملقاط أمام المرأة .

وكانت تجمل حواجبها فى هدوء وهى تنظر فى المرآة .. حينما حدث فجأة
أن تولاهها ذلك الفرع الهائل الذى قضى عليها .

ماذا رأت فى المرآة لتقلب سحتها كل هذا الانقلاب .
لم تكن تقلصات وجهها تقلصات ألم ، وإنما كانت تقلصات خوف .
كانت عيناها جاحظتين محمقتين .. وعند ركنى فيها .. تلك الحركة
العضلية التى تدل على الرعب .
ولحمت فى أصبعها دبلة ذهبية .

لا شك أنها خطيبته التى قال إنه فى طريقه إلى الزواج بها .
ولكن أين هو ؟
أين كان طول الوقت ؟

صورته على التسريحة يبدو فيها أكثر امتلاءً ووسامة مما رأيته . لا بد أنها
صورة قديمة .

أهو على علم بما حدث فى شقته أم أنه لم يعلم بعد ؟
وأين هو الآن ؟

وتسللت إلى حجرات الشقة الأخرى .

حجرة صالون ستيل .. وحجرة أكل .. وحجرة مكتب أقرب إلى
معمل منها إلى مكتب .. مكتب صغير منزو فى ركن ، وبقيّة الغرفة بها مائدة
كبيرة مجهزة بحوض ومواقد بترن ، وأرفف للمحاليل الكيميائية ، وأنايب
اختبار ، وأجهزة تقطير ، وميكروسكوب موديل حديث قوته التكبيرية تزيد
على عشرة آلاف مرة .. وجهاز غريب معقد لم أفهمه .. أغلب الظن أنه
محول كهربائى ذو جهد عال .

تحت الميكروسكوب موجودة شريحة بالفعل .

ووضعت عيني على الميكروسكوب .

كانت الشريحة لنسيج حي غريب يبدو أنه نسيج جنيني .

ما الذي يجعل راغب دميان يمارس كل هذه البحوث المتشعبة في الكيمياء والتشريح والباثولوجى والبكتريولوجى .. وهو كما ذكرلى فى العيادة مهندس كهرباء فى وحدة أبحاث الراديووم فى قصر العينى .. ما الذى يجعل بحوثه تمتد إلى كل هذه المجالات .

كنت أشعر بدهشة يمازجها الارتباب .

من هو ذلك المدعو راغب دميان ؟

وما حياته ؟

وماذا يعمل بالضبط ؟

كنت أكاد أشعر من فرط التفكير أن ورم المخ قد أصابنى

وكان الضابط طول الوقت منكفئاً على أرض الغرفة يفحصها .. ويدون

أرقاماً وملاحظات فى نواته .. وأنا أفكر بدون أن أصل إلى حل .

هل أقول للضابط إنه مريض من مرضى .. وإنه حوّل إلى عيادتى

باشتباه ورم فى المخ ؟

أم تكون هذه الشهادة إفشاء لأسرار ليس من حق إفشاؤها .

إن ما يقوله المريض للطبيب سر حميم مثل الاعتراف الذى يقوله الخاطى

للقسيس ولا يصح إفشاؤه .

وأغلقت فى وآثرت أن أفكر لنفسى .

وكان السكوت ثقلاً جديداً يضاف إلى هومى .

ولاحظت وأنا أنظر فى وجه المرأة المتقلص من الخوف .. أن نظرتها

المرتاعة تذكرنى بوجه راغب دميان حينما داهمته نوبة الإغماء .

كانت النظرتان فيهما نفس التعبير .. ذلك الرعب المحير لكأنما أطلت

العينان على سر رهيب مروع من تلك الأسرار المطلسة وراء الطبيعة .

وكنت أشعر برجفة وأنا أطل فى العينين المفتوحتين .. وأغضى عيني

بيدى .. حينما سمعت الضابط يقول :

- أنت تعرفه ؟

وفوجئت بنفسى أكذب فى تلقائية :

- من الذى أعرفه ؟

- صاحب الشقة .

- لا .. هذه أول مرة أدخل الشقة .

ونظر الضابط فى وجهى باستغراب فأردفت موضحاً :

- جئت على استدعاء بالتليفون .. قال لى المتكلم إنه مريض جداً

وأعطانى العنوان .

- هل تستطيع أن تصف صوته ؟

- لا أذكر بالضبط .. كانت العيادة ساعتها مليئة وأصوات الشارع تغطى

على المكالمات .

ولا أعرف كيف تورطت فى هذه الأكاذيب واحدة تلو الأخرى .

كنت أريد أن أحتفظ بالسرى لنفسى .

كنت أرى أن كل مايجرى فى حياة هذا الرجل من حق وحدى .. من

شأنى .. لا شأن لأحد به .

وكنيت أشعر شعوراً خفياً بأنى أمام سر لا مكان للبوليس والنيابة فيه .
وتسللت إلى غرفة المعمل من جديد مشدوداً إلى الجو العلمى الذى
أحبه .

وأمام الميكروسكوب رحت أضبط العدسات مرة أخرى .. وأتأمل
الشريحة الموضوعة .. وأحاول أن أفهم طبيعتها .. كانت أشبه بنسيج
جنى .. ولكنى لم أستطع أن أعرف على طبيعتها بالضبط فى الثوانى القليلة
التي أتاحتها اللحظة المختلصة .

وبحركة خفيفة من يدي سحبت الشريحة من تحت الميكروسكوب
وأسقطتها فى جيبى دون أن يلحظنى أحد .

ولم أنس أن أدس فى جيبى النوتة الحمراء الصغيرة التى وجدتها إلى جوار
الميكروسكوب .

عملية مرفقة واضحة .

ولكنى لم أستطع أن أقاوم الإغراء .

كانت رغبتى فى معرفة الحقيقة تغفر أمام ضميرى أى شيء .. وارتفع
صوت ضابط البوليس من غرفة النوم .

- فيه نقطة دم .

وأسرعت خارجاً .. لأراه ينحنى على السجادة وفى يده عدسة يتأمل
بقعة حمراء مستديرة لا يزيد قطرها على سنتيمتر .

ولم أشأ أن أقول له إن ما يظنها بقعة دم ليست إلا بقعة « مركريكروم »
من الذى يُستعمل فى مس اللوز .

وآثرت أن أتركه فى غفلته ينسج جرائم ودماء لا وجود لها .

وابتسمت وأنا ألمح زجاجة « المركريكروم » على التسمية وإلى جوارها
أدوات المس يستطيع الضابط أن يرسم بها مئات البقع الدموية والجرائم كما
يشاء خياله الخصب .

وحينما كنت أركب عربتى فى طريق العودة إلى منزلى فى ذلك اليوم
المضى كنت أشعر بنشوة عجيبة كلما تذكرت أنى أحمل فى جيبى اللغز .
تلك الشريحة التى سرقها وعليها القصاصة من النسيج المجهول التى كانت
الشغل الشاغل لذلك الرجل راغب دميان .. ونوتة ملاحظاته وكنت أضغط
على البنزين متعجلاً الوصول إلى معملى .
كنت متفائلاً .

وكنيت أتخيل أن المسألة لن تحتاج لأكثر من نظرة متأملة من عدسة
ميكروسكوب .

سرطان ماذا ؟

ولكن القطاعات التي تبدو للأوعية الدموية في النسيج لا يظهر فيها التمدد والانتساع والاحتقان المألوف في السرطانات .. الأوعية الدموية طبيعية ..
وعلامات الانقسام والتكاثر الخلوي لا وجود لها ..
سرطان .. وليس سرطان .. ونسيج عصبي .. وليس بنسيج عصبي ..
فإذا يكون .. ؟ !

تذكرت النوتة الحمراء فأخرجتها من جيبى ورخت أقلب صفحاتها ..
وأصابتنى خيبة أمل لا حد لها ، فلم تكن الملاحظات الخطيرة التي توقعتها إلا
بيانات بمشتريات منزلية .. وحساب الجزار والبقال والصيدلى ..
وشعرت بالصداع ..
وأشعلت لفاقة تبغ ..
ومضيت أدخن وأفكر فى هدوء وأطفأت النور الذى أتعب عيني من
طول الحملقة فى عدسات الميكروسكوب ..
كان أملاً ضعيفاً ..
نعم ..
من يدري ؟

ربما كان هو الآخر قد غادر الدنيا إلى غير عودة .. فهو الآخر يعيش على
خافة كارثة ..

كانت النيابة قد أخذت شهادتى للمرة الثالثة ..
وكان التحقيق مازال يسير بدون تقدم .. لم يظهر أثر للمدعو راغب
دميان وكأنه كان وهماً ..

٢

كنت أضع الشريحة تحت الميكروسكوب الكبير الذى استعرتة من صديق
البكتريولوجى .. وأحاول جاهداً أن أفك طلاسمها ..
كان مازهر لى فى البداية أنه نسيج جنينى ظناً خاطئاً .. فالحلایا فى
تفاصيلها لا تشبه الحلایا الجنينية .. وهناك زوائد واضحة عند أطراف
الحلایا مما يجعلها أشبه بنجوم مدبنة .. وهى صفة فى الحلایا العصبية للمخ
والجبل الشوكى لا فى الحلایا الجنينية البدائية ..
ولكن شكل البروتوبلازم والنواة .. وتوزيع الصبغة المستعملة مختلف عما
هو مألوف فى الحلایا العصبية ..
كان الأمر محيراً ..

وما كان يحير أكثر .. هو شكل النواة فى الخلية ..
كانت كبيرة متوهجة أشبه بنواة الخلية السرطانية ..
سرطان ؟ !

قلب البوليس الأرض بحثاً عنه دون جدوى .

اختفى ..

تبخر ..

لا خيط .. ولا دليل .. ولا أثر يقود إليه .

الطبيب الشرعى قال فى كشفه على الجثة .. إنها حالة موت طبيعية نتيجة

فزع فجائى توقف له القلب وثلت الأعصاب ..

سكتة قلبية .. مثل السكتة التى تحدث فى الوفاة نتيجة الصاعقة ..

كيف حدث هذا الأثر الصاعق ..

ماهو ذلك الخوف الذى يوقف القلب ويشل الأعصاب كما تشلها

الصاعقة ..

أسئلة ..

مجرد أسئلة بلا أجوبة ..

وكنيت أنا الآخر أسأل نفسى .. وأفكر .. دون نتيجة .. كل الفرق أنه

كان عندى أمل فى أن يتصل بى راغب دميان ..

فى كل نوبة من هذه النوبات التى تتابها كان يبدو وكأنه يروح فى غيبوبة

الموت .. وكأنه يخطو إلى هاوية لا قرار لها ..

نبضه الممتلى كان يخفت حتى يصبح همساً . وتنفسه كان يتحول إلى

لهاث ..

وأطرافه تبرد وتشلج ..

ثم ذلك الفزع الذى يظهر عليه فتسع حدقاته فى جنون مثل حدقات

مدمنى الكوكايين وتتشنج أطرافه وتتصلب كأعواد من حديد ..

ماذا كان يرى فى غيبوبته ليفزع كل هذا الفزع ..

ثم هذه اللغة الأسبانية التى كان يتكلمها فى طلاقة كما يتكلمها أصحابها

بدون أن يتعلم منها حرفاً واحداً .

أهى حالة عصبية أم نفسية أم روحية ؟

أهى حالة فى متناول العلوم الطبية المعروفة ؟

كان الرد على هذا السؤال قابلاً فى أدراجى .. فى صور الأشعة العديدة

التي التقطتها للرأس .. فى رسم المخ الكهربائى .. فى تحليلات الدم والسائل

السحائى .. فى الفحوص الأكلينيكية المضنية التى أجريتها .

وعدت إلى صور الأشعة أحاول مرة أخرى .

وأضأت النور .. وعدت أضعها الواحدة إلى جوار الأخرى .. ورحت

أتفحصها فى هدوء .

وفجأة ..

هبطت الحقيقة وكأنها إلهام ..

لا لم تكن إلهاماً .

لقد تصادف أن كان على الفانوس الخاص باستطلاع الصور صورة

قديمة لجمجمة عادية لرجل سليم .

ولأول مرة أمكنتى أن أقارن الصورتين .

لم تكن ظلال الجمجمة فى صورة راغب دميان ظلالاً عادية كما

تصورتها للوهلة الأولى .

كانت العظام كلها أرق قليلاً من المألوف .

ملاحظة كان من الصعب إدراكها بدون اللجوء إلى المقارنة المباشرة ،

لأن الأثر الذي لحق بالعظام لحق بها جميعاً . فاحتفظت الصور بنسبها الطبيعية .

ما معنى هذا ؟

العظام أرق من المألوف ، فراغ الجمجمة أكبر .

هل هي حالة مرضية في العظام ..

لا .. لم تكن حالة عظام بدليل عظام العنق في الصورتين . كانت عظام

العنق في الصورتين متماثلة وطبيعية .

العظم سليم .

وما حدث لعظام الجمجمة ليس مرضاً بالعظام .. وإنما نتيجة ثانوية لما

حدث في المخ .

المخ ازداد في الحجم .

عظام الجمجمة تمددت ورقت .

الذبذبات الكهربائية الخارجة من المخ ارتفعت قوتها من ٥٠

ميكرو فولت إلى ٩٠ ميكرو فولت .

هناك شيء ما حدث في المخ .

وبرق في ذهني خاطر .

إن ما حدث في مخ دميان .. المرجح أن يكون قد حدث مثل له في مخ

خطيبته .. بدليل حالة الإفزع التي عاشها الاثنان .

ومن حسن الطالع أن مخ الخطيبة المتوفاة أصبح في الإمكان تشريحه

ودراسته .

وقفزت من مكاني لهذا الخاطر .

ورفعت سماعة التليفون لأطلب الطبيب الشرعي الذي أشرف على

تمة .

وأجابني الدكتور على الطرف الآخر من الخط .

سألته في خبث عن بعض التفاصيل في التشخيص

كنت في الحقيقة أريد أن أعرف مصير الجثة .

وكان ثثاراً بدرجة جعلتني في غنى عن استدراجه .

حكى لي أن الجثة ظلت في قصر العيني ثلاثة أيام دون أن يتعرف عليها

أحد .

ثم تقدم رجل عجوز قال إنها ابنته التي خرجت من أيام ولم تعد ..

وبكى بمرارة وتسلم الجثة ووقع على استمارة التسلم بإمضاء عوض إبراهيم ..

وأنه قرأ بعد ذلك نعيّاً في الصحف للمتوفاة تحت اسم ماري عوض . فيه

أسماء جميع أقاربها بما فيهم الأب عوض إبراهيم .. وأن تشييع الجنازة

سيكون في الصباح والدفن بمقابر الروم الكاثوليك .. قرأ هذا في صحف

يوم .

وفي الحقيقة لم أكن أريد أن أعرف أكثر من هذا ..

إنها دفنت اليوم بمقابر الروم الكاثوليك .

ربما من ساعات .

ولم يكن أمامي وقت أضيعه .

كان لا بد من الوصول إلى الجثة والحصول على المخ بسرعة قبل أن

تحلل .

وارتديت ثيابي .. وأخذت عربتي .. وأسرعت إلى المقابر .. كانت

الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل ، والبرد قارصاً والرياح
شديدة ، والشوارع خالية تماماً .

وشعرت بالاطمئنان .
في مثل هذا الخفاء والظلمة والسكون يستطيع الواحد أن يفعل أي
شيء .

وبلغت بوابة المقابر .
وكان الحارس ينام في غرفة إلى جوار الباب .
ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة المقبرة والوصول إلى الجثة بدون معونة
الحارس .

وظللت أطرق باب الغرفة عدة مرات قبل أن أسمع خطوة الحارس وهو
يتعثر وأسمع ثناؤه .. ثم أراه يفتح الباب وينظر إلى وقد فغرفاه في دهشة .
لم يكن غريباً على .

وسرعان ما تصافحنا في ود ، فقد كان الرجل مريضاً قديماً من مرضى
أعالجه من سنوات من حالة صرع مزمنة .

وجرى كل شيء بعد ذلك في هدوء .
صحبتني الرجل إلى المقبرة ومعه أدواته .
وصدق الرجل أني أفعل هذا بتفويض من النيابة ، وأن في الأمر سرّاً
خطيراً لا يجب أن يعلم به أحد .

ومضى وقت وهو يرفع البلاطة الرخامية .
وكان صوت معوله وهو يهوى في الصمت والخراب كأنه يدق على
أعصابي .

وأخيراً كان الصندوق يتمدد أمامي في ضوء النجوم .
هناك في قلب ذلك الصندوق كانت الحقيقة تنام .. لا يفصلني عنها
أي غطاء خشبي .
الحقيقة ... !!!

وعلى ضوء بطارية صغيرة رفعت الغطاء ليفاجئني منظر مروع .
كانت الجثة ممددة في الصندوق بلا رأس .
الرأس مقطوعة من جذورها .
وأذهلتني المفاجأة ... وألجمت لساني .

ونظرت بارتياح إلى الحارس .. ولكن الحارس كان يقف مثلي وقد
سعت عيناه من الصدمة وراح يحملني في الصندوق في بلاهة .
كان واضحاً أنه خالي الذهن تماماً مما حدث . وأنه أكثر مني جهلاً
بالمفاعل .

وسقط قلبي في ضلوعي ، وكأن رأسي أنا هو الذي قطع . وتذكرت
راغب دميان .

كنت أرى يديه على الجثة .. وآثار بصماته على الصندوق . وآثار أقدامه
على الأرض المتربة .

لم يكن هناك شك في أنه صاحب المصلحة الوحيد في هذا العمل .
كنا كلانا نجرى خلف شيء واحد مثل كلب صيد منطلقين خلف سر
رهيب .

وكنزت على أسناني .

لقد سبقني ..

سبقني ..

كنت أشعر بخيبة أمل لا أحد لها .

وأعدت الغطاء إلى مكانه .

وتركت الحارس يسوى الأرض ويضع البلاطة مكانها .

وعدت أدراجي وأنا أشعر بأن خطواتي ثقيلة وساقى وارمتان

كان يختم علىّ بأس لا أحد له .

كنت أقول للنفسي .

إذا كان هناك معنى أكيد لهذا كله . فهو أن راغب دميان حي

وأنه يعيش في مكان ما .

وأنه لا بد سيلجأ إليّ .

لا بد سيلجأ إليّ .

هل كنت أطمئن نفسي ؟



أصبح التفكير في راغب دميان جزءاً لا يتجزأ من حياتي ، فأنا أصحو
م على وجهه الهضيم الشاحب وعينيّ الزائغتين
وأنا أسمع صوته . وأهذى به في أحلامي .
وأنا أتخيله طول الوقت في معمله وقد انفرد بالرأس الذي نزرعه من الجثة
وراح يفحصه .

ماذا تراه قد وجد من أسرار في تلك الحقيبة من الجلد والعظم التي اسمها
الدماغ .

وأى بحوث غريبة يجريها ؟

هذه الخلايا الحية التي اسمها المخ .. كيف ترى وتسمع ونحس ونشم
وتفهم ..

كيف تشعر بالألم ؟

وكيف تشعر باللذة ؟

وكيف يخلق لنا المخ هذا الضوء الذى اسمه الوعي والإدراك ؟ هل المخ هو العقل ، أو أنه مجرد وسيط يستخدمه العقل ليتعقل الأشياء ؟ إن ما قاله له الطب عن المخ والأعصاب قليل ، وأقل من القليل .. فالأعصاب أدوات استشعار تنقل المؤثرات الخارجية إلى مراكز فى المخ ، كما تنقل أسلاك التليفون الكلام إلى الأذن .. وفى هذه المراكز كما فى الأذن يتم تصور هذه المؤثرات بالشكل الذى نراها به فى الواقع .

إننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئة حرارة وبرودة ، وضوء رائحة ، ألم ولذة .

ولكن كيف ؟

هذه الترجمة التى يترجم بها مخنا كل المؤثرات التى تصل إليه .. هل هو ترجمة صحيحة ؟

هل الماء لا طعم له ؟

وهل الليل أسود .. والنهار أبيض ؟

أو أنها إحدى الصور الممكنة بين ممكنات لا عداد لها ؟

هل يمكن أن يكون لهذا العالم شكل آخر ؟

وهل يمكن أن نراه على صورة أخرى أكمل وأشمل وأصدق ؟

إن السر فى المخ .

إننا نبدأ وننتهى إلى المخ دائماً ، فهو المترجم الألكترونى لهذه الدنيا .

وهو الذى يصنع لها صورتها وشفرتها . فإذا أردنا أن نرى للكون صور أعمق وأصدق من التى نراها .. فلا سبيل سوى أن نفك هذا الجهاز

الألكترونى الذى اسمه المخ ، ونعيد تركيبه ليكون أقدر على هذه الرؤية الجديدة التى نطلبها .
إنه المخ دائماً .

حقيقة الأسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .

المخ أولاً إذا أردنا أن نعرف حقيقة أى شئ .

وهو يعلم هذا جيداً ذلك الرجل .. راغب دميان .. وربما كان فى هذه

اللحظة يستخرج المخ من الجثة ويضعه على المشرحة ، ويقطعه جزءاً جزءاً

ليفحصه بذلك الميكروسكوب الذى يكبر عشرة آلاف مرة .

وهو قد توصل إلى شئ .. شئ لا أعلمه .. ولكنه خطير .. يستطيع

أن يوسع نطاق المعرفة والرؤية والإحساس .

وربما أوصلته هذه البحوث إلى رؤى جديدة مفزعة .

نعم .. كان السر هناك تحت خبطات مشرطة فى تلك اللحظة وأنا هنا ألهث أمام أبواب مغلقة .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة .. وأنا مازلت مسهداً .. أستجدى النوم بلا فائدة .

وفكرت أن أجرب الطريقة المألوفة فى جلب النوم .. بالقراءات لسخيفة .

وبدأت أقلب أكوام الجرائد القديمة إلى جوار الفراش .. أقرأ لإعلانات ، والوفيات ، والمقالات المملة ، والحوادث التى قرأتها قبل ذلك رات ومرات .

وبدأت الحروف تتراقص أمام عيني .. وبدأت أنعس .

وكنيت أوشك أن أنام حينما التقطت عيناى عنواناً فى صفحة الحوادث
فى جريدة قديمة عن سرقة عشر إبر راديوم ثمنها أكثر من عشرين ألف جنيه
من قسم أبحاث الراديوم بالقصر العيني .. وقد أبلغ عن السرقة مدير القسم
المهندس راغب دميان .

وطار النوم من عيني فجأة .. وقفزت من فراشى .
ورحت أقرأ الخبر مرة ومرات وأنا أفرك عيني وأعود فأقرأ من جديد
الاسم بالنبط الأسود .. راغب دميان .

وقرأت تاريخ صدور الجريدة ..

كانت صادرة منذ ثلاثة سنوات .

ولا أدري لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ربما بسبب هذه الإحصائية
المنشورة عن الأمراض العصبية فى مصر والموجودة بنفس العدد .

من كان يظن أنى يمكن أن أضع يدي على سر خطير بهذه البساطة .
إنه هنا .

راغب دميان بعينه .

وهذه السرقة التى أبلغ عنها هى من صنع يديه .

فلا أحد يسرق راديوم إلا لص عالم ، وبحاجة يعرف فوائده وينوى
استخدامه والاستفادة به .

إنَّ اللص العادى لا يمكن أن يمد يده إلى راديوم .

وأين يبيعه إذا سرقة ؟ وكيف .. ؟ وماذا يعنى الراديوم بالنسبة له ؟

لا شىء .

إن هذه السرقة وثيقة الصلة بالبحوث التى كان يقوم بها راغب دميان
منذ ذلك الحين .

وربما كان هذا التاريخ هو بداية اشتغاله بهذه البحوث . وكتبت التاريخ
فى ورقة .

وقطعت قصاصة الخبر من الصحيفة واحتفظت بها .

لقد تقدمت خطوة .

إن راغب دميان لابد يحتفظ بهذه الإبر الثمينة من الراديوم فى مكان آخر
بىر بيته وغير معمله الذى اقتحمه البوليس ..

ومعنى هذا أن معمله الحقيقى وأدواته فى مكان سرى مخفى عن
أعين .. وفكرت ..

إن هذه الإبر الثمينة من الراديوم المشع سوف تفضحه .

وكتبت ملحوظة فى نوتة بشراء عداد جييجر

عن طريق هذا العداد الذى يكشف عن اقل إشعاع سوف أستطيع
معرفة مكان المعمل السرى ومخبأ إبر الراديوم .

* * *

كان أول شىء فعلته حينما تيقظت فى الصباح .. هو شراء عداد جييجر .

ورسمت خطة محكمة لتقسيم القاهرة إلى عشر مناطق .. أذرع كل منطقة

لعرية فى يوم .. أتجول فى كل شبر فيها .. وأتحسس طريق .

وسوف يتولى العداد كشف المنطقة التى فيها الراديوم .. ثم يدلنى على

بيت .. والغرفة .. والخزانة .

لن يكلفنى الأمر أكثر من الصبر والمثابرة .

وبدأت اليوم الأول بحماس .

وظللت أتجول في ضاحية حدائق القبة .

فكرت أنه ربما اختار مخبأه قريباً من بيته .

ولكن بحثي لم يسفر عن شيء .

كانت عيناى على مؤشر العداد طول الوقت ولكنه كان ينام نوماً ثقيلاً في مكانه .

وفي اليوم التالى كنت أذرع شوارع المعادى .

وفي اليوم الثالث كنت في الدقي .

وفي اليوم الرابع كنت في الجزيرة .

وفي اليوم الخامس كنت في مصر الجديدة .

منطقة بعد منطقة رحت أذرعها في صبر وأناة ، بدون جدوى . فكرت أنه ربما كان يضع إبر الراديو في خزانة من الرصاص مزدوجة الجدران . ويمثل هذا الاحتياط يستطيع أن يمنع الإشعاع من التسرب بقدر يسمح باكتشافه .

كان مثل هذا الاحتياط بديهيًا من مهندس أشعة يعلم أنه سارق

وكان معنى هذا أنى ألهث وراء شيء لا وجود له .

وصرفت النظر عن هذه المطاردة .

ونخيم على اليأس من جديد .

ولكن لا أدري لماذا برقت في ذهني من جديد حكاية النوتة الحمراء

لماذا فكرت فجأة أنه من غير المعقول أن تكون كل وظيفة هذه النوتة

هى إدراج حسابات الجزار والبقال والصيدلى ؟

ولماذا توضع مثل هذه النوتة بجوار المكروسكوب ؟

وبسرعة أخرجتها من جيبى ورحت أتصفحها من جديد .

وماكدت أقلب الصفحات الأولى حتى فوجئت بصفحات في الوسط

كتوبة بالرصاص ، فيها معادلات كيميائية .

وفي صفحة أخرى ملاحظات متناثرة على شكل خواطر .

لوحظ أن العصب البصرى يحتوى على أكثر من مليون خط عصبي .

وأن الإشارات العصبية تستقل في الأعصاب الطويلة مثل أعصاب

ساقين عن طريق محطات تقوية كهربائية كيميائية ، وأن الليفة العصبية ليست

في الواقع إلا سلسلة من محطات التقوية تماماً كما في الكابلات التى تنقل

إشارات التليفونية عبر البحر .

- كيف تبقى البطاريات في الخلايا العصبية مشحونة على الدوام وفي

لة صالحة للإرسال والاستقبال طول العمر .. هذا هو السؤال .

- في الوقت الذى تنقبض عضلات القلب ٧٠ مرة في الدقيقة .. ولا

تكاد تنقبض عضلات المحار والأصداف إلا مرة كل عدة ساعات لإغلاق

المحارة وفتحها .. لوحظ أن عضلات أجنحة الحشرات تنقبض حوالى ٥٠٠

مرة في الثانية ، المادة التى تتكون منها عضلات هذه الحشرات هى

الأكثوميسين (هى مادة بروتينية) ..

كيف يمكن أن تتم العمليات الكيميائية في هذه العضلات بمثل هذه
لسرعة والكفاءة ..

- الجسم الصنوبرى في المخ .

- الأثر الإشعاعى على الكروموسومات .

وتحت كلمة الجسم الصنوبرى ثلاثة خطوط .
حاولت أن أفهم المعادلات الكيميائية ولكن معلوماتى فى الكيمياء
تسعفتى ..

ولماذا الاهتمام بالجسم الصنوبرى بالذات .
أنا أعلم من دراستى للتشريح أن الجسم الصنوبرى هو زائدة فى المخ بلا
وظيفة معروفة .. وكان معتقداً فى الماضى أنها مركز الاتصالات الروحية .
وهو اعتقاد خرافى رفضه العلماء من زمن .

ما الذى يجعله يفكر فى الجسم الصنوبرى . ويضع تحته ثلاثة خطوط .
واهتمامه بالكروموسومات (وهى ناقلات الصفات الوراثية) وبتأثير
الإشعاع عليها .. ومادة الأكتوميسين !

هل هذه المعادلات الكيميائية هى محاولات للوصول إلى تركيب مادة
الأكتوميسين ..

كانت الملاحظات كلها مكتوبة على شكل خواطر عابرة .. ولكنها
فتحت أمامى عالماً من الغوامض التى يعيش فيها ذلك الباحث الغريب ..
ما الذى يجرى وراءه دميان ؟ .



إن ما يجرى وراءه راغب دميان هو اكتشاف سر الحياة ..
إن الكلمات القليلة المكتوبة فى النوتة تشير إلى هذا .. فيجوده تدور
حول سر التفاعلات الكهربائية الكيميائية فى الخلية العصبية .

كيف تتولد التنبيهات الكهربائية فى الخلية العصبية ؟ . وكيف تنتقل هذه
التنبيهات إلى العضلات .. وكيف تنقبض هذه العضلات فى حشرة بدائية
خمسمائة مرة فى الثانية ؟ .

من أين تنبع هذه القوة المجنونة التى تحرك جناح حشرة مثل مروحة
طائرة ؟ وما سر هذه المادة السحرية « أكتوميسين » التى تتألف منها العضلة
الحية ؟ « والكروموسومات » ؟ لغز الحياة المظلم .. تلك القضبان الدقيقة
فى أنوية الخلايا ، التى لا ترى إلا بأقوى الميكروسكوبات .. تلك القضبان
لتي نحوى على كل الصفات الوراثية للإنسان - وما هو أكثر - أنها تكاد

تكون أرشيفاً لتاريخ الحياة كله مسجلاً على المادة الحية . منتقلاً معها من جيل إلى جيل .

إنه يحاول أن يكشف سرها بالتأثير عليها بالإشعاعات .

وأخيراً تلك الزائدة الغامضة في المخ البشرى (الجسم الصنوبرى) التى تتدلى مثل ترسة صغيرة في وسط المخ بلا وظيفة وبلا دور معروف . هل يمكن أن يكون قد وصل إلى سرها ؟ ! ماذا اكتشف ذلك الرجل الهضم الشاحب ؟

إنه يسرق .. ويقتل .

نعم .. ربما كانت هذه الوفاة التى بدت وفاة طبيعية هى جريمة قتل دبرها بوسائله ليحصل على مخ الضحية .

ربما كانت تجربة رهيبه من تجاربه .

وربما كان في طريقه الآن إلى جريمة أخرى .

كنت أقود عربتي بسرعة في طريق مصر - إسكندرية الزراعى ذاهباً إلى طنطا في مشوار عائلي .

وكنت غارقاً في تساؤلات لا آخر لها وقد استقرت قدمي على دواسه البنزين على آخر سرعة حينما ظهرت أمامي فجأة عربة نقل كبيرة . وضغطت بأخر قواي على « الفرملة » وانحرفت في الاتجاه الآخر لأنزل أنا والعربة في حقل محروث حديثاً .

وكنت حسن الحظ لأن العربة غاصت في هدوء وأمان في التربة المحروثة .. وكتبت لي النجاة من موت أكيد .

وتصبب العرق على وجهي وشعرت بأصابعي باردة ثلجية مبتلة ورحت

أمسح وجهي بأنامل مرتجفة .

وكان قد تجمع حول العربة بعض الفلاحين راكضين يدفعون العربة التي غرست في التربة الرملية .

وخطوة .. خطوة .. بدأت العجلات المغروسة تتحرك .. ومددت يدي لأدير « المارش » .

وحانت مني التفاتة إلى عداد جيكر الذي وضعته على عارضة العربة اتسعت عيناي من المفاجأة .

كان مؤشر العداد قد اندفع على الميناء مشيراً إلى وجود إشعاعات راديوم عن قرب .

معنى ذلك أن مخاً دميان عن قرب .

إشعاعات راديوم عن قرب !

معنى ذلك أني على بعد خطوات من السر .

ربما دورة أو دورتين بالعربة في المنطقة .. وأستطيع أن أجد بالضبط مصدر تلك الإشعاعات .

ونظرت حولي ..

كان الطريق الزراعى خالياً ..

لم تكن هناك آثار لمساكن سوى « فيلا » صغيرة على بعد خمسمائة متر من المكان ..

لم يكن هناك مجال لاحتمالات عديدة .

وإنما هو احتمال واحد في الغالب ، هو أن هذه « الفيلا » في هذا

الطريق المقطوع هي المخبأ السرى .

وكان معنى هذه الإشعاعات القوية أن الراديو موضوع في مكان
مكتشف وليس محفوظاً في خزانته الرصاصية التي تحجب الإشعاع .. وربما
كان موضوعاً في تجربة بالفعل .

وتوترت حواسي كلها وأنا أتطلع إلى النوافذ ذات الستائر المسدلة
وأوقفت العربة على جانب الطريق على بعد كاف حتى لا يشير الريشة
وتسللت إلى « الفيلا » لأصعد السلالم القليلة في المدخل .. ثم أقف أمام
الباب أتلفت حولي في حيرة .
هل أدق الجرس ؟

لا ..

إن أي إشعار بطارق غريب سوف يعطى الرجل وقتاً كافياً ليخفي معالم
كل شيء .

لا بد من وسيلة للمفاجأة ..

لا بد من الدخول من طريق آخر غير الباب .

لو أني التفتت بالعربة حول « الفيلا » ووقفت بها تحت البلكونة الخلفية
لأمكنني أن أصعد فوق العربة وأقفز منها إلى البلكونة كالقطة بأقل جهد
يذكر .

وفي لحظة كنت أدور بالعربة ، وأقف بها في المكان المناسب وأصعد
عليها ثم أقفز لأصبح في البلكونة لا تفصلني عن الداخل إلا ستائر حريرية
هفافة .

وأزحت الستائر في حذر وأدخلت عيني متلفتة لأكتشف أن البلكونة
لغرفة نوم ، وأن غرفة النوم خالية .

كانت هناك صالة واسعة وممر وغرفة مضادة في آخر الممر ، وباب الغرفة
مفتوح . ويبدو منه جهاز « أتوكلاف » كبير .
إنه المعمل .

ولا بد أنه عاكف الآن على العمل .

هل أدخل ؟

أو أختبئ حتى يخرج لأفتش بحرية في كل شيء ؟ وآثرت الاختفاء .
وعدت إلى غرفة النوم لأتمدد تحت السرير وقد أصخت بكل أذني إلى
كل حركة .

ومرت ساعة كثيفة شعرت فيها أنني أتثلج .

ولم أسمع خلال هذه الساعة الطويلة حركة واحدة تدل على وجود حياة
إلى جوارى .

وفكرت ..

ربما كان في الخارج وقد أشعل النور قبل خروجه ليوهم أي لص من
لصوص الطريق أنه موجود .

وخرجت من مخبئي بهذا الأمل الضعيف وتسللت إلى الصالة ثم إلى
الباب المفتوح . لأطل في خوف .. واكتشفت أن المعمل كان خالياً طول
الوقت .

وبعد دقيقة أخرى من التجول الحذر تيقنت أن البيت خال بالفعل ،
وأن صاحبه في الخارج .

ولم أشأ أن أضيع لحظة .

كان المعمل هو هدي .

وفي مكان واضح على يمين الباب شاهدت المخ الذي أنحت عنه في
حوض فورمالين ..

وبنظرة واحدة اكتشفت أن المخ مقطوع قطعاً طويلاً . وأن الجسم
لصنوبري منزوع منه

وعلى مائدة أخرى شاهدت متحاً آخر . ثم ثالثاً ورابعاً في أحواض
فورمالين .. وقد قطعت كلها قطعاً طويلة ونزعت الأجسام الصنوبرية منها .
وتجمد الدم في عروقي .

هل أنا أمام سفاح مخون يقتل ضحايا بالجملة . ويتخذ من الأجسام
البشرية الحية حقلاً لتجاربه .

أو أن ما اكتشفه ذلك الرجل من أسرار جعله يستهين بكل قيمة إنسانية
في سبيل أن يضع يده أخيراً على نغز الحياة ..
وبطرق آدمي

كان هناك مولد للكهرباء الاستاتيكية .
ومرشحات وأذيت تقطير متعددة وأصباغ وأحواض وقلويات ومحاليل
عيارية وأحواض صغيرة للزرع الأنسجة الحية وميكروسكوب .
وفي الركن الخزينة الرصاصية المزدوجة الجدران التي توضع بها إبر
الراديوم .

وكانت الخزينة مفتوحة وخالية .
وفي الركن الآخر كرسي عجيب . يشبه كرسي طبيب الأسنان مثبتة .
على جانبيه روافع عديدة .. وعند رأس الكرسي ثلاثة أنابيب زجاجية مفرغة
شبه أنابيب أشعة المهبط التي توجد في أجهزة أشعة إكس ..

والجالس في هذا الكرسي يمكن أن يكون هدفاً لأشعة مركزة تأتيه عن
يمينه وعن يساره ومن خلفه ... ثلاث حزم من الأشعة تنعكس من ثلاثة
عواكس لتتركز في نقطة واحدة في رأس الجالس على الكرسي .. يمكن أن
يحددها المشرف على العملية مسبقاً عن طريق الروافع المتعددة المحيطة
بالكرسي .. وهي روافع مزودة ببراجل دقيقة لقياس قطر الرأس ومحيطه .
جهاز غريب .. لم يسبق لي أن رأيت مثله .

وبعض أجزاء الجهاز مصنوعة محلياً .
إنه غالباً جهاز مخترع .
ولكن أي نوع من الأشعة يطلقه هذا الجهاز الجهنمي ..
هل هي أشعة راديوم ؟
إن إبر الراديوم لا مكان لها في الجهاز ..

والأنابيب الزجاجية المفرغة تختلف في مقاييسها عن أنابيب أشعة إكس
المعروفة .

إنه يطلق إشعاعاً خاصاً ذاذبذبة عالية التردد .. ربما إشعاع « جاما » أو
إشعاع « بيتا » أو أي لون من ألوان الإشعاعات القصيرة الموجة ، وربما كان
يستخدم لوناً من النظائر المشعة ..

وكيف يتأتى له الحصول على النظائر المشعة بدون معونة مفاعل ذري ؟
ولاحظت وجود « بارافان » وراءه شعاع .. ربما كانت وظيفته أن يخلع
الزائر ثيابه من خلفه ويعلقها على الشعاع استعداداً لفحوص طبية وكيميائية
معينة .

شيء مريب ..

ولاحظت أن « البارافان » يؤدي أيضاً إلى باب في الخلف ، والباب يفتح على غرفة مربعة .. بها جهاز آخر غريب يشبه مفاعل ذرى صغير . ولكنه ليس مفاعلاً ذرياً بالمعنى العلمى المفهوم ..

وفى مركز الجهاز بومبة راديوم .. بها إبر الراديوم المفقودة .. وكان من الواضح أن ذلك الرجل توصل إلى عدة مراحل يحطم فيها المادة إلى إشعاعات .

وأنه يستخدم هذه الإشعاعات فى تجاربه على المخ الحى .. ولكن ما الداعى إلى مولد الكهرباء الاستاتيكية .. وما دوره فى العملية .. وأجهزة التقطير والأصباغ والمحاليل العياريّة ومواقد بترن العديدة ! ؟ ..

لا بد أن هناك عملية استخلاص كيميائية أخرى لها أهميتها .. ووضعت عيني على الميكروسكوب .

وفوجئت برؤية الميكروسكوب يسبح فيه عدد هائل من الحيوانات المنوية ..

لم تكن حيوانات منوية آدمية .. وإنما حيوانات منوية مستخلصة من مثانات ضفادع فى الغالب .

وتأكد استنتاجى حيناً رأيت بويضات ضفادع متعددة فى نفس المجال الميكروسكوبى .

كان معنى هذا أنه يحاول مشاهدة عملية تلقيح البويضة على الطبيعة وعملية الانقسام والتخليق الجنينى ، ودور النواة والكروموسومات فى العملية .

وكان مؤشر الميكروسكوب يشير بالفعل إلى نواة البويضة وإلى

كروموسومات .. وفهمت من وجود سخّاحة بها سائل أزرق إلى جوار الميكروسكوب أنه يحاول أن يحرب دور المؤثرات الكيميائية المختلفة على الكروموسومات .

إنه معمل باحث متعمق فى الطبيعة الحية ..

وكانت على المائدة كراسى مذكرات ..

ومددت يدي لأفتح الكرسي .. ولكن يدي تجمدت مكانها .. فقد

سمعت المفتاح يدور فى قفل الباب وأرجل مسرعة تدخل ..

وتلفت فى ارتباك أبحث عن مكان أختبئ فيه ..

ولم أجد أمامي إلا « البارافان » .

وأسرعت أختبئ خلفه وكنمت أنفاسي .. فى الوقت الذى دخل فيه

دميان ومعه رجل آخر كبير الرأس .

وكان دميان يبدو أشد نحولاً وأشد شحوباً مما كان ..

وسمعتة يقول لزائره وهو يشير إلى الكرسي الذى يشبه كرسي طبيب

الأسنان .

- هذا هو الجهاز الذى سيتفك من الصلغ .

- ربنا يجعل فى يدك الشفا .

- بإذن الله الاعتماد على الله .

وأخذه من يده مردفاً :

- اخلع الطاقة من على رأسك وتعال اقعد هناك وأشار إلى الكرسي .

وخلع الرجل الطاقة ولاحظت أن رأسه أصلغ تماماً .

وعرفت الخدعة ..

إن دميان استدرج الرجل الأصلع بزعم أنه سوف يعالجه من الصلع ..
وبهذه الطريقة سوف يضعه على الكرسي ويسلط الأشعة الجهنمية على مخه ..
ويكيّفه كما يشاء في الوضع الذي يختاره .. ليكون موضوعاً لتجربته وربما
لخبرته فيما بعد حينما يصبح المرحوم مخاً في أحد أحواض الفورمالين المتراسة
على المائدة ..

كنت على وشك أن أشهد بعيني جريمة قتل بشعة ..
وفكرت بسرعة .. على حين جلس الرجل الأصلع على الكرسي ، وأخذ
دميان يقيس رأسه بالبراجل العديدة المثبتة في الروافع .. ويدوّن المقاييس في
قوتة .. ثم يعدل من وضع أنابيب الأشعة ويغير الزوايا العاكسة ليضبطها
على المسافات المطلوبة .

ثم فتح أحد الأدراج وأخرج حقنة معقمة .. ملأها بسائل أزرق .
بشبه السائل الذي في السحاحة ، وحقنها في وريد الرجل ... ونظر إلى
ساعته قائلاً :

- بعد عشر دقائق سوف أبدأ العلاج .
وسألت نفسي وأنا أفكر بسرعة : ولماذا عشر دقائق بالذات ؟
وأضعفتني ذاكرتي الطبية .

إن هذه هي الدقائق المطلوبة لتصل المادة المحقونة في الدم إلى الجسم
الصنوبري في المخ ويبدأ فعلها .. وبعد هذا يبدأ العلاج ..
ولن يكون العلاج إلا تسليط هذه الأشعة الجهنمية من زوايا ثلاث على
الجسم الصنوبري .

بعد دقائق تبدأ جريمة رهيبة .. وأنا واقف أتفرج .
لا بد من عمل ..
لا بد من عمل ..

ولكن الانتظار طال ولم يعد التيار إلى حاله .. وأنا أتنفس الصعداء في
مخبيء ..

ومرت ساعة ترقب طويلة مملة .
ورأيت دميان يضيء بطارية صغيرة ويقول لزمائره :
- يبدو أن التيار سيظل مقطوعاً طول الليل ..
يحسن بنا أن نؤجل العلاج للغد .
- كنت أريد أن أنتهي من العلاج وأستريح .
- ليس أمامنا حل آخر .

ورأيت الاثنين يخرجان .. وسمعت الباب يفتح .. وخطوات الاثنين تنزل
السلم .. وتغيب في الطريق .
وفكرت بسرعة .

إن وجودي وراء البارافان يعطيني الفرصة لأراقب كل ما يجري في الغرفة
ويعطيني الفرصة في نفسى الوقت لأن أطفئ النور وأهرب في الظلام من
الباب الخلفي إذا دعا الأمر .

كان مكاناً مناسباً يجعلنى وسط الأحداث باستمرار
ولم يكن فى نيتى أن أواجه راغب دميان .
كنت أريد أن أتركه يعمل بحريته تحت وهم أنه وحيد فى معمله ..
لأعرف منه كل شيء .

ولهذا قررت البقاء فى مكانى .
ومرت دقائق ظنتها ساعات .

ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب وخطوات دميان داخله ..

1

انقضت الدقائق العشرة ..
وبدأ دميان يوصل التيار الكهربائى ويدير أزرار الجهاز ..
وأضاءت أنابيب أشعة المهبط الثلاث بوهج خافت .. وارتفع أزيز
الآلة الجهنمية .

وتلفت حولى فى دعر .
واكتشفت أن سكينه التيار الكهربائى ورائى .
كانت أشبه بطوق نجاة يلقى إلى فى آخر لحظة .
وبسرعة فصلت السكينه فانطلقت الأنوار وغرقت الغرفة فى ظلام
دامس وسمعت دميان يقول فى ضجر :

انقطع التيار مرة أخرى .
ثم يردف فى غيظ وقد أعد نفسه للانتظار :
- أمرنا الله ..

كان وحده هذه المرة .. وشعاع البطارية الصغيرة يلمع في يده .
وبحركة خفيفة أعدت السكينة إلى مكانها .. فتلاأت الأنوار في
المعمل ، وسمعت دميان بمصمص بشفتيه في ندم :
- لو أننا انتظرنا قليلاً ..

ورأيته يفرك يديه وينظر إلى المصباح المضيء في عتاب .. ثم يفتح
الكراسة ويطل في الميكروسكوب ثم يلتقي بالشريحة التي عليها الحيوانات المنوية
في البلاعة .. ويفتح صندوقاً يستخرج منه ضفدعة حية يشقها بمشرطه
بسرعة .. ليفرغ ما فيها من حيوانات منوية على شريحة جديدة يضعها على
الميكروسكوب ثم يمضي يلاحظ .. ويدون ملاحظاته بسرعة .

ويمد يده إلى السحاحة ويفتح صنبورها فتتزل قطرات قليلة زرقاء من
القطارة على شريحة الميكروسكوب .. ويعود إلى الفحص وتدوين
الملاحظات .

وبعد ساعة أخرى من العمل المتواصل رأته يقف وينظر حوله متعباً
ويمسك برأسه ويفركها ويفرك عينيه كأنما ليحاول أن يطرد نعاساً .. ثم رأته
يخرج حقنة من الغلاية يملؤها بالسائل الأزرق ثم يعرى ذراعه ويضغط فوق
مكان الوريد بقطعة من الجلد ثم يغرس الإبرة بمهارة وسرعة ويحقن نفسه .
وراح ينظر إلى ساعته وبعد مرور الثواني والدقائق .

وبعد عشر دقائق كان يتجه نحو الآلة الجهنمية ثم يجلس على كرسيها
ويوجه أنابيب الإشعاع الثلاثة ، واحدة إلى جبهته ، والثانية إلى جانب من
رأسه ، والثالثة إلى الجانب الآخر .. ثم يضغط على الأزرار فتضيء
الأنابيب الثلاثة بوهج خافت ، ويدوى ذلك الأزيز الرهيب .

وتجمد الدم في عروقي وأنا أشاهد مايجرى أمامي .
إنه يجري تجربة الموت على نفسه .
إنه نفس السائل الذي حقن منه في وريد الرجل .. ربما نصف الكمية
ولكنه نفس السائل .

وهاهو ذا يجلس مكانه ويسلط الأشعة الرهيبة على محه .
هل بإمكانه أن يتحكم في مقدار جرعة الأشعة عن طريق هذه الأزرار
إلى جواره .
أظن أنه بإمكانه أن يفعل هذا فهناك أكثر من عداد للأمبر والفولت
على واجهة الجهاز .

ورأته يدخل في نوبة تشنج فتصلب عضلاته كأعواد من حديد وتظهر
في عينيه تلك النظرة الهائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تفتح أمامه .
ثم يدخل في غيبوبة كاملة يسترخى فيها كأنه في نوم عميق .
ثم سمعته يتكلم .

كان يتكلم بنفس النبرات الهادئة الواضحة كما كان يتكلم حينما اعترته
النوبة في عيادتي .

وكان يتكلم باللغة الأسبانية السليمة كما حدث تماماً في المرة الأولى ..
واستطعت أن أترجم ذلك الكلام الذي يوجهه إلى دون سباستيان
كاميللو .

- يا صديقي إن ما حدث في ذلك اليوم مازال محفوراً في رأسي .. لم تكن
مفاجأة لي أن انفجر اللغم في الوقت والساعة التي انفجر فيها .. لقد كنت على
علم بكل شيء .. وكنت أرى اللغم أمامي .. كنت أراه بعيني هاتين .

وتغيرت نبرته تماماً وكأنما قد لبسه شخص آخر .. شخص أجنبي النبرة
لاهث الأنفاس ، هو دون سياستيان .

- لا أصدق .. يا إلهي .. هل يمكن أن يكون هذا معقولاً .

- هناك حالة نفسية لا يعرفها إلا من عاش في الحرب مدة طويلة ..
حالة تستبد بالجندى فإذا به يندفع ليلقى بنفسه إلى الهلاك وكأنما يحدوه دافع
باطني إلى الخلاص بنفسه من كل هذا الجنون .. فإذا به يدخل في خط النار
ويمشي على الألغام ويسعى إلى الموت مفتوح الذراعين .

- دون ميجولو فارجا أنت دخلت بنا في حقل ألغام .. وأنت تعلم أنك
داخل في حقل ألغام ؟
- نعم كنت أعلم .

- دون ميجولو فارجا أنت مقبوض عليك .

وسمعت ضحكة مجلجلة من دون ميجولو فارجا .

- تقبض على ماذا ؟ ؟ ! ! .. ألا ترى أنني مقبوض على بالفعل في
جاكتة الجبس وينطلون جبس منذ شهور وأنا لا أحرك ذراعاً ولا ساقاً ! ؟
تقبض على الجبس لتضعه مرة ثانية في الجبس ؟

وعادت الضحكة المجلجلة تدوى مرعبة في الغرفة :

- وكيف ستنفذ أمر القبض يا جاويش سياستيان كاميللو .. أنسيت أنك

تنام إلى جوارى مقطوع الذراعين في الجبس مثلي .

وسمعت دون سياستيان يزار ..

- سوف أقبض عليك بأمر القانون .

وعاد دون فارجا يضحك .

- القانون انتهى العمل به من زمان أيها الجاويش .. أنسيت أننا هزمنا
في الحرب . وأن هناك قانوناً آخر الآن في الحكم .

وعاد يضحك ضحكته الباردة المرعبة ..

- انظر حولك .. إننا الآن أسرى ولسنا أبطالا .. وهذه الأعلام المرفوعة

ليست أعلامنا .. لقد انتهينا مع الدنيا التي انتهت .

وسمعت زئير دون سياستيان ..

- أنت مجنون .. مجنون .. مجنون ..

- ثم تحول الزئير إلى عويل وأنين وبكاء محتق ونبرات متهدجة ..

- وما العمل .. وما العمل ؟

- سوف نموت .. سوف نموت .

وسمعت صراخ دون سياستيان .

- أنا لا أريد أن أموت .. أنا أريد أن أعيش . أنا أريد أن أعيش .

واختفى الصراخ ليتحول إلى نسيج مكتوم .

وكنت أرى دميان يهتر بالنسيج الذي يخرج من بين جنيبه .

كان من الواضح أنه مجرد أداة لهذه الأصوات الغريبة التي تخرج منه .

مجرد بوق .. أو راديو .. أو أسطوانة .. أو شريط تسجيل ..

هل هي أرواح .

ومن هو دون كاميللو ودون فارجا ؟

هل لها وجود ؟

ورأيت راغب دميان يفتح عينيه ببطء ويتلفت حوله . ثم يمد يده في

ضعف فيضغط على مفتاح فينطلق الوهج المشع ويتوقف الأزيز .

واكتشفت أن هناك جهاز تسجيل صغيراً كان يسجل ما يجري طول الوقت .

وكان وجه دميان شديد الشحوب وعيناه حمراوين مثل كأسين من دم .
ورأيته يميل على ترموس صغير يفتحه ويجرع منه جرعة شرهة .
ورأيته يدير جهاز التسجيل ويستمع إلى الأصوات التي سجلها في أثناء غيبوبته ويدون ملاحظات في نوتة .

ثم يتشاءب ويقوم متعباً .. وينظر في ساعة يده ويمسح على جبهته ثم يطفىء النور ويخطو إلى غرفة النوم .

ولم أتحرك من مكاني حتى سمعت صوت باب غرفة النوم يغلّق .
وكانت أول فكرة خطرت لي أن أسرق كراسة المذكرات ولكنني خفت أن يتيقظ في الليل ويدخل المعمل فيكتشف السرقة .. وربما استبد به الخوف فهجرت محبّاه وفقدت أثره إلى الأبد .

ولهذا آثرت أن أترك كل شيء على حاله ..

وانسحبت عائداً في خفة من حيث أتيت .

ومع أول نسمة من هواء الشارع البارد برق في ذهني خاطر .
أن أتصل تليفرافياً بسفير مصر في أسبانيا ، وهو صديق عزيز ، أسأله كل ما يستطيع معرفته بشأن دون ميچولو فارجا ودون سباستيان كاميللو .

وهل كانا ضمن جنود الحرب الأهلية الأسبانية وماذا كان مصيرهما .
كان أملاً واهياً ولكنني تعلقت به .

وكانت الساعة العاشرة مساء تدق فوق رأسي وأنا أكتب آخر كلمة في التلغراف وأسلمه إلى موظف المكتب .. والمطر ينزل رذاذاً في الشارع وأنا

أقود عربتي في طريقى إلى البيت .. والشارع يلمع في المطر .. وعقلي سابح في ألف فكرة وفكرة .

هل أنا أهذى ؟

هل كان هذياناً كل ما رأيت وسمعت .. هل هو كابوس .. هل أنا أحلم ؟

ذلك الحديث بين اثنين لا وجود لهما .. دون كاميللو ودون فارجا ..
وهو حديث يبدو منه أنها يتكلمان من سريرين متجاورين في مستشفى .
وأنتهما أسرى حرب . وأنتهما جرحى .. وموضوعان في الحبس . وأنتهما بصارعان الموت .

وآخر كلمة في الحديث هي صرخة دون كاميللو بأنه يريد أن يعيش .
من الواضح أن أسبانيا لا تخوض حرباً .. وأن الحديث هو حديث عن حرب انتهت .. أغلب الظن أنها الحرب الأهلية الأسبانية . الحديث كله مجرد ماضٍ بعث حيّاً على لسان دميان الذي كان أشبه بوسيط .

هل ممكن ؟

هل ممكن أن تعيش الأصوات في الجو هذه السنوات حتى تجد وسيطاً فتعود لتبعث من جديد على لسانه .

أم أنها صرخة الإرادة المتشبثة بالحياة هي التي أعطت لهذا الماضى الذي انعدم رخصة الحياة من جديد .

هل هي معجزة إرادة .. وصرخة إصرار ؟

وإرادة من ؟ !

إرادة رجل مات .. ومن المفروض أن تكون إرادته قد ماتت معه
هل أنا أعود فأهذى من جديد ؟
إنه لشيء مريبك حقاً .



كنت أروح وأغدو في غرفتي التي أغلقت بابها .. ثم أعود فأجلس في
فراشي .. ثم أقوم فأقعد أمام مكتبي .. ثم أعود فأخط بعض الحروف على
الورقة .. أفكر وأكد ذهني ، وكأني أمام لغز من الكلمات المتقاطعة لا تلتقي
فيه كلمة على كلمة .. أحاول أن أستجمع الحقائق الغريبة المتناثرة في هذا
اللغز المتشابك .. من أول اليوم المشؤم الذي طالعت فيه وجه دميان .
جرمة ١٥ شارع ابن الوليد بجذائق القبة .

والجثة المتزوعة الرأس في مقابر الروم الكاثوليك .
والمخ المقطوع قطعاً طويلاً في حوض الفورمالين وقد نزع منه الجسم
الصنوبري ، وذلك العدد من الأبخاخ المتراسة في الأحواض .
أين رعوس أصحابها .. وأين جثثهم .. ؟
ماذا يفعل ذلك المجنون بالآلة الجهنمية التي يسلطها على رعوس
ضحاياها ؟

وأية أشعة رهيبه اكتشفها ؟

وما هي تلك البحوث المريبة التي يجريها على الحيوانات المنوية التي يستخلصها من ضفادع حية ؟

وما هو السائل الأزرق الذي يستخدمه في تجاربه ؟

وما سر النوبة التي تستولي عليه ؟

وما حقيقة الأصوات التي يهذى بها في نومه ؟

عشرات الأسئلة وعلامات الاستفهام

وأشد ما يفرغني إحساسي بأن الرجل في طريقه إلى هاوية .

ماذا يحدث لو أنه فقد عقله ؟

معنى هذا أن تنقطع صلتنا بالحقيقة إلى الأبد .

كان لابد من وسيلة لاكتشاف كل شيء قبل أن يفوت الوقت ولكن كيف ؟

كيف يمكن أن نعرف ما بداخل جمجمة ؟

كيف نكشف ما يدور في عقل ؟

كنت أروح وأجىء في عصبية حيناً دق الباب ودخل الخادم يحمل تلغرافاً .

كان هو التلغراف المنتظر من أسبانيا .

وقرأت الرد المكتوب باختصار شديد :

« دون سباستيان كاميللو مصارع ثيران مات في الحرب الأهلية الأسبانية

ودون ميخولو فارجا لم يمكن التعرف عليه » .

إذن فهي الحقيقة .

لم تكن الأصوات هذياناً .. ولم تكن الأسماء اختلاق عقل مجنون وإنما هي أسماء لناس عاشوا بالفعل .

وما دار من حديث هو تحصيل حاصل .

لقد دار هذا الحديث ذات يوم منذ سنوات بين أسرى الحرب دون كاميللو ودون فارجا ، وهما يصارعان الموت في مستشفى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية .

وما فعله دميان هو أنه التقط هذا الحديث من العدم

كيف تمت هذه المعجزة ؟

عن طريق عضو مجهول من أعضاء المع ، غالباً عضو تعطل عندنا هو الجسم الصنوبرى .. استطاع دميان أن ينبه بقذائف الإشعاع وبالمادة الكيميائية التي يحقنها في الدم .. فإذا به يتحول إلى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضي .

رأى رادار يكشف شبكة الحوادث ويحرق حجب الزمن

أمر يشير العجب حقاً !

ولكن من يدري ؟

ماذا لو فكرت دودة عنفاء أن في جهازها العصبي البدائي بذرة السم والبصر ؟

ماذا لو فكرت أنها ذات يوم سيخرج لها حفدة لهم عيون وآذان .. لا شك أنها تعجب ولا تصدق .

وكذلك حالنا نحن العميان بالنسبة للمستقبل .. لا تصدق أنه يمكن أن نرى في الزمان كما نرى في المكان .. وأن التاريخ يمكن أن يتحول بالنسبة لنا

إلى مسرح مرئي .. وأن في محثا بذرة لجهاز عجيب يمكن أن يستطلع الماضي ويرى ما حدث فيه رأى العين .
إنه أمر مثير حقاً !

إن وجه الدنيا ليتغير كثيراً إذا قدر لنا أن يتسع نطاق رؤيتنا إلى هذا المدى . فنرى الماضي كما نرى الحاضر ، ونسمع الأحداث التي ولت وغبرت كما نسمع الأحداث التي تجري حولنا الآن .
إننا نصبح كالملائكة .. كالأنبياء ..

ولكن كيف يمكن ذلك ؟
كيف يمكن أن أضع يدي على السلم
كيف أصل إلى ما كشفه ذلك الرجل
لا بد من خطة ..

وكنيت أعرف الطريق جيداً هذه المرة .. فقد أخذت طابعاً لثقب الباب بالشمع واصطنعت لي مفتاحاً خاصاً .

ودخلت خلصة . وكان دميان في الخارج .
وكان كل شيء في المعمل على حاله .

وكانت هناك غلاية للحقن تغلي فوق سخان كهربائي .
ولاحظت وأنا أضع يدي على جهاز الأشعة أنه ساخن ، مما يدل على أنه كان في حالة تشغيل منذ مدة قريبة .

وقبل أن أفكر كيف حدث هذا .. كنت أسمع خطوة دميان على السلم وصوت مفتاحه يدور في الباب .
وأسرعت لأختفي وراء البارافان .

ورأيت دميان يدخل .. وفي يده لفافة كبيرة .
ورأيت يضع اللفافة على المائدة ويفتحها .
كان بداخلها صندوق زجاجي فيه عنكبوت .. واحد من تلك العناكب ضخمة التي تكثر من المناطق الاستوائية الحارة .. وسرت في بدني قشعريرة .
لنا أنظر إلى رأس الحشرة وإلى العيون العديدة الصغيرة التي تبرز فيها .
وكان يخيل إليّ أن هذه العيون ترمقني في مخبيئ .

وبين لحظة وأخرى كان العنكبوت يدور حول نفسه ويدبر رأسه المتعددة العيون كأنها قبة مرصد فلكي : وينظر إلى محتويات الغرفة .

وكنيت أرتجف في مكاني حينما تقع عيونه الكثيرة على . ولم تدم هذه اللحظات طويلاً .. لأن دميان - وفي يده آلة تشريح غريبة تشبه شوكة ذات فرعين - مالبث أن فتح الصندوق .. وغرس الشوكة في خفة في ظهر العنكبوت .. وبمشرط صغير قطع العنكبوت الحي قطعاً طويلاً ..

ثم بدأ يعمل مشرطه في مهارة وسرعة في منطقة الرأس .
وبعد لحظات كان ينتزع كتلة هلامية بيضاء كروية الشكل ويضعها في أنبوبة اختبار بها محلول .

ورأيت الكتلة الهلامية تذوب بالتدريج في المحلول لتتحول إلى مستحلب أبيض .

ورأيت دميان يشرع في إضافة عدة محاليل إلى المستحلب ، ثم يضع المزيج في جهاز يعمل بقوة الطرد المركزية ليفصل الرواسب وحدها .
والمحلول الرائق وحده .

وبعد إدارة الجهاز عدة دقائق رأيت يضع الرواسب في دورق زجاجي

ويضيف إليها قطرات من حامض كبريتيك مركز وكحول ، ثم يكمل الدورق إلى منتصفه بالماء المقطر .. ثم يبدأ في عملية أشبه بالتقطير .. كان يضيف فيها قطرات من محاليل عدة .

وبمضي الوقت اختلطت على تلك العمليات الكيميائية لكثرتها فلم أعد أستطيع متابعة تفصيلاتها خاصة أن أغلب المحاليل التي استعملها كانت محاليل مجهولة بالنسبة لي .. كل ما فهمته أنه يعالج هذه الخلاصة معالجة كيميائية شديدة التعقيد .. ليخرج في النهاية بمنتجات قليلة من سائل أصفر .

ورأيت يتناول هذا السائل بأيدي ضئيلة ليضعه في الأتوكلاف ثم يضبط ساعة الأتوكلاف على وقت معين .. ثم ينظر حوله في راحة ويتشاءب ويغادر المعمل ذاهباً إلى غرفة نومه .

كان يقوم بكل خطوة في هدوء وثقة .. مما يدل على أنه يعرف سلفاً ماذا تعني هذه الخطوة .. للدرجة التي يستطيع فيها أن يترك المعمل ليذهب وينام وهو مطمئن أن كل شيء سيسير على مايرام . ومضت دقائق .

وسكنت الحركة في غرفة النوم

وكان معنى هذا أنه نام .

ولم أستطع أن أقاوم فضولي .. فخرجت من مخبئي .. وكان أول ما اتجهت إليه هي ساعة « الأتوكلاف » لأعرف على أي وقت ضبطها . ورأيتها مضبوطة على العاشرة .

معنى ذلك أنه أعطى نفسه ساعتين راحة .

ومعنى ذلك أن أمامي ساعتين قبل أن يدق جرس « الأتوكلاف » فيوقظه ..

ساعتان .

وقت طويل .. ولكنه بدا لي في تلك اللحظة قصيراً جداً .

نظرت إلى العنكبوت وإلى رأسه المشقوق .. وإلى الحفرة الشاغرة حيث كانت تستقر الكتلة الهلامية التي انتزعها .

لم يكن مخ العنكبوت كما خيل لي .. ولكن غدته اللعابية . لقد فتح دميان رأس العنكبوت ليحصل على غدته اللعابية .

كان هذا أمراً غريباً بالنسبة لي !

لماذا يتجشم دميان كل هذه المتاعب ليحصل على الغدة اللعابية لعنكبوت ؟

وفتحت كراسة المذكرات .

ومضيت أقلب صفحاتها .. وكانت أغلب الصفحات مكتوبة بشفرة كيميائية خاصة .. لا سبيل إلى معرفتها إلا بمعرفة مفتاح الشفرة .

وفي صفحة رأيت بعض عبارات بالقلم الرصاص :

* خلاصة من براعم نبات الأكادينيا .

* سرعة نمو البيضة الملقحة (الجنين) في محلول ملحي قلوي .

* الهرمونات كعامل مساعد .

* لا يمكن رفع درجة حرارة المحلول أكثر من أربعين درجة وإلا ماتت

جميع الحيوانات المنوية .

وكلمات أخرى مشطوبة لم أستطع قراءتها .

كان من الواضح أنه يجري مجرى مجوثة في فروع مختلفة كل الاختلاف .
مسألة حيرتني غاية الحيرة .

حاولت أن أخرج بحيط مشترك يمكن أن يربط الغدة اللعابية لعنكبوت
بالحيوان المنوى بالبيضة الملقحة في الجنين بالبراعم في نبات الأكاديبيا .

أية رابطة يمكن أن تربط هذا الخليط ؟

نعم .. أية رابطة ؟

يبدو أن هناك خيطاً بالفعل .

خيل إلى أن هناك رابطة .. فجميع هذه الأشياء تشترك في صفة الحيوية
والنمو السريع .

الزعم في النبات هو أكثر أجزاء النبات حيوية وأسرعها نماء ، وكذلك
الجنين .. وكذلك الغدة اللعابية للعنكبوت ، فهذه الغدة هي التي تصنع
الخيوط التي يغزل بها العنكبوت بيته ، ولهذا فهي أكثر الأعضاء نشاطاً
وحيوية والحيوان المنوى هو الآخر يحمل بذرة التجدد والحياة في كيانه
العضوي الضئيل كأكثر ما تحمل خلية نشطة .

إن دميان يبحث إذن في سر النشاط والحيوية والنمو والتجدد . ويختار
خاماته الحية من الأعضاء التي تتصف بهذه الصفات .

وهو يهدف من عمليات الاستخلاص الكيميائي العثور على المادة
السحرية .. المادة الباعثة للحياة والنماء والنشاط .

إنه يبحث عن المنبه الطبيعي للحياة .

وفتحت « الأثوكلاف »

كانت فيه عدة خلاصات مرقمة .. على كل واحدة رقم وحروف
بالشفرة عن مصدرها .

وفي ركن رأيت أنبوبة فيها السائل الأزرق الذي حقن به نفسه .
وتناولت الأنبوبة .

وشممت رائحة غريبة .

كان السائل له رائحة غريبة أشبه برائحة الثوم .

وبينا كنت أتفحص السائل سمعت حركة ورفعت عيني لأفاجأ بدميان
واقفاً أمامي .

كانت عيناه حمراوين مثل كأسين من دم . وجفونه وارمة .. وخداه
متفخين .. وشعره مشعثاً .. وكان بخطو ببطء كأنه يتعلم المشي .. ويكاد
يقع في كل خطوة .

وكان يفتح فمه ليحاول الكلام فلا يستطيع النطق .. وكان يمد يده في
ذعر إلى الأنبوبة التي في يدي . وترجف شفاهه . وتظهر على جانبيها
رغبة ..

ورأيت أنه يأخذ نفساً طويلاً كأنه عطشان إلى الهواء . ثم ينهوى على
الأرض .

أسرعت إليه .. كان يلهث .. ويفتح عينيه ويغلقها .. ثم يغيب لحظة
عن وعيه .. ثم يعود ينظر حواليه ويهمس :

- أنا لم أقتل أحداً .. أنا قتلت نفسي .. الذين ماتوا لم أقتلهم ولكنهم
ماتوا لأن عمرهم انتهى بعد أن عاش كل منهم مليون عام .. ماذا كانوا
يطلبون من الدنيا أكثر من هذا .. أنا أيضاً عشت مليون عام .. أنا رأيتك

منذ ولدت أول مرة .. أنت لا تعلم أنك ولدت مرات ومرات .. مرات
كثيرة لا تعد ، وأنت عجز .. عجز .. عمرك مثل عمر الهرم الأكبر .
وبدأت عيناه تغيمان وبدأ يسرح ويهوم في عالم آخر وينظر إلى "كأنه ينظر
من خلالي إلى فراغ .



كان دميان في حالة عقلية عجيبة ، أشبه بالغيوبة .. ولكنها ليست
غيوبة ، بل هي قريبة من اليقظة والتفتح والشفافية والجلاء البصرى .
كان ينظر إلى الأشياء وكأنها تشف له عن معان وأشكال غير أشكالها ..
وكان ينظر إلى وجهي ويتسم كالأطفال ويهمس :
- أناديك بأى اسم .. أنت لك أسماء كثيرة أكثر من ألف اسم ..
أناديك باسمك أيام الممالك .. أم أيام الأتراك .. أم أيام الخلافة الفاطمية ..
تصور أن اسمك كان في يوم من الأيام « بهلول الحلبي » .
وضحك ..

وخيل إلى أن الاسم يبدو مألوفاً بالرغم من غرابته ..
وأردف دميان وهو يتسم :
- بهلول .. بهلول .. تصور .. أصلك كنت بهلول الخليفة .. البهلوي
لذي تشقلب أمامه لتضحكه .. كنت قصيراً طول ذراعى هذا .. نعم ..

وهذا أنت أراك أمامي الآن وأنت تتشقلب زمان (وأغرق في الضحك)
كنت ظريفاً جداً أيها البهلول .
ثم عاد ينظر إليّ في وقار ..

- الدكتور م . داود دكتوراه في جراحة المخ من برلين .. رجل علم
محترم . يقف له كل من يراه .. أين هو من بهلول الخليفة .. تاريخ .. كل
منا تاريخ .. كل منا حكاية طولها مليون سنة .. ألا تريد أن تعيش مليون
سنة .. أنا عندى أكسير من يأخذه يعيش مليون سنة .. يعيش الماضى الذى
مات .. ويقليب صفحات كتاب الدنيا كله .

إن المخ شيء عجيب .

أنت تخصصت في جراحة المخ .. ولكن مثل كل المتخصصين لا تفهم
شيئاً .. إن المخ عالم كبير .. أرشيف .. فهرس .. مرجع شامل . كل يوم من
أيام التاريخ مكتوب به ورقة في محك من الأزل .

من منشأ الحياة .. كل يوم مدون . ورقة بورقة .

هل تريد أن تقلب أوراقك ؟

هل تريد أن تعيش تاريخ كل الأزمان ؟

وسكت لحظة وأمسك برأسه بين كفيه وظهر على عينيه الألم ..

وغامت نظراته .. ثم عاوده اللهاث ... ورأيت حدقتيه تتسعان .

وخرجت الكلمات من فمه كالصفيح الخفاف المتقطع :

- لا أمل .. أنا سوف أموت .. ! .. أموت .. كل شيء يقيم أمامي

الدنيا تصبح ظلاماً .. النور .. النور .. دكتور داود .. الأكسير ..
الأشعة ..

وأمسك برقبته وهو يتلوى كأنما هناك أيد تخنقه وهو يصرخ في صوت
كالفحيح :

- أنا لم أقتل أحداً .. أقول لكم إنى لم أقتل أحداً .. أنا وهبت كل
واحد مليون سنة .. مليون سنة .. القتيلى الحقيقى هو أنا .. أنا الذى أموت
الآن ولا أجد لحظة .. لحظة واحدة أعيشها . دكتور داود الأكسير ..
وتلقفته على صدرى وانطلق لسانى الذى عقده الفرع

- أين هو الأكسير ؟

- الأكس ...

- ما هو تركيبه ؟

وسكت وأغمض عينيه على حين رحى أهزه في عنف وأصرخ :

- تركيبه .. أرجوك .

وخرجت كلماته مفككة :

- تركيب .. ب .. ب .. ب ..

وألقي برأسه إلى الوراء ولفظ نفسه الأخير .. مات ..

لم أصدق ..

لمست عينه .. لم تطرف ..

كانت حدقاته تلمعان كالزجاج . وتحملقان في الفراغ ..

انتهت حياة دميان ..

مات آخر أمل من آمالي على شفثيه .

ونظرت حولي في فرع ..

وأدركت الحقيقة الرهيبة كلها دفعة واحدة .

إني الوارث الوحيد للسر ..

لا أحد يعلم حياة دميان وموته سوى ..
كيف أتصرف ؟

إني ساكن مع جثة في « فيلا » على الطريق الزراعي .
ورأيت نفسي أفكر كطبيب .

إن الحصول على كلمة واحدة من دميان أصبح مستحيلاً ولكن ..
ولكنني أملك جسده .
أملك مخه .

أستطيع أن أعرف بضربة مشرط ماذا حدث بداخل هذا المخ الذي
أصبح يرى الماضي ويحترق حجب الزمن .

ورسالتني كرجل علم تقتضي مني أن أفعل شيئاً .

وشعرت بالوقت يمضي وكأنه قطار مسرع تدهمني عجلاته .

كان لا بد من العمل بسرعة قبل أن تتيسر الأنسجة .

ونظرت إلى حقيبة آلات التشريح ، وإلى المشرط الذي كان يعبث في
عنكبوت منذ ساعة مضت .

وغلب فضولي العلمي على خوفي ، فتناولت المشرط وبدأت أعمل
بسرعة .

واحتجت إلى منشار لقطع العظم .

وكان في الحقيبة أكثر من منشار واحد .

لا شك أن دميان كان يقوم بهذه العملية كثيراً بدليل وجود هذه
المناشير .

وبعد ثلاثين دقيقة من العمل المحموم استطعت أن أصل إلى المخ .
كان يبدو عليه الاحتقان . وكانت الشعيرات الدموية متمددة بشكل
ملحوظ .

وكان أول شيء لاحظته حينما قطعت المخ طولياً أن الجسم الصنوبري
ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي .

وانتزعته في حذر ووضعته في محلول ملحي .

كان السر كله كامناً في هذه الترسمة الصغيرة .

وشعرت أن الجزء الباقي من العمل هو أخطر الأجزاء ، أن أقطع مقاطع
ميكروسكوبية في هذه الترسمة ، وأفحصها فحصاً ميكروسكوبياً لرؤية
التحولات التي حدثت في خلاياها .

وكنت أتوقع أن أجد المعدات اللازمة ، فهذه عملية كان يقوم بها دميان
بانتظام كل مرة .

وكان توقعي في محله ، فقد وجدت في ركن جهازاً حديثاً لقطع المقاطع
المطلوبة ، وكأنما كان دميان يعلم احتياجاتي كلها فوضع كل شيء في متناول
يدي .. وبدأت أقطع عدداً من المقاطع وأصبغها تمهيداً لدراستها تحت
الميكروسكوب .

وحينما وضعت عيني على عدسة الميكروسكوب لأرى أول مقطع .. كان
المنظر الذي رأيته منظراً مألوفاً .

كانت الخلايا أشبه بالخلايا السرطانية .

لا شك أن هذا المقطع هو نفس المقطع الذي رأيته في شقة ١٥ شارع
ابن الوليد تحت الميكروسكوب .. وساعتها خيل إلى أنه نسيج جنيني .

لم يكن نسيجاً جنينياً ، لقد كان شريحة من الجسم الصنوبرى .
هل هو سرطان ؟

لا ليس سرطاناً .. بدليل عدم وجود انقسامات فى الخلايا .

وإنما وجه الشبه بينه وبين السرطان هو حيوية الخلايا ، وسرعة نموها ،
وشدة قابليتها للصبغة .

إن الخلايا الجسم الصنوبرى فى حالة انتفاضة ونشاط .. وهذا كل ما فى
الأمر .

ولا شك أن دميان استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة باستخدام الإكسير
الذى أخذه حقناً فى الدم .. وباستخدام التنبيه المتكرر بالإشعاع .
كانت القصة قد بدأت تتضح .

ولكن كيف كان دميان يستحضر أكسيره من خلاصات البراعم النامية
وغدد العنكبوت والحيوانات المنوية ؟

ماهى المعالجة الكيميائية بالضبط ؟

النوته تحكى التفاصيل بالشفرة .

ولا أحد يعلم مفتاح هذه الشفرة إلا صاحبها الذى سكت إلى الأبد .
ولكن الأكسير موجود .

وربما أمكن تحليله والوصول إلى مكوناته .

وهناك جهاز الإشعاع .. الذى يمكن الوصول هندسياً إلى معرفة كنهه .
هناك أكثر من أمل .

ولكن كان هناك شيء آخر أهم من هذه الآمال بالنسبة لى .

الختبار أهم من جميع هذه الاختبارات الكيميائية .. هو الاختبار

الحى .

أن أجرب .

أن أجرب بنفسى هذه اللعبة

أن أعيش مليون سنة .

أن أرى الماضى .

كانت الفكرة تفرغنى .. ولكنها تخدر إرادتى وتتسلط على حواسى .

نسيت كل شيء ، ولم أذكر إلا شيئاً واحداً

أن أتناول الإكسير ، وألقى ذلك الإشعاع السحري لأرى ما لم تره عين

وأسمع ما لم تسمع أذن .

آكل من الشجرة المحرمة .. شجرة المعرفة .. وادخل الجنة الموعودة .

كانت الفكرة تخدرنى تماماً .. تسلبنى عقلى .

كنت كطفل أمام قطعة خلوى باهرة يعلم أن دماره فيها ولكن ريقه

يتحلب ليتذوقها .

وبفطرة لا تقاوم ، مثل فطرة آدم التى شدته إلى التفاحة ، وجدت

نفسى مشدوداً إلى مصرى .

كانت كل حوافز حياتى تلقى بى إلى ذلك السر .

نعم .. كنت أريد أن أعيش « المليون عام » ، وأولد « المليون ولادة »

وأذوق هذا الذى هو أشبه بالخلود .

ووجدت يدى تمتد إلى الحقنة تملؤها بالسائل الأزرق .. وبدفعة خفيفة

من الإبرة فى الوريد .. كان السائل ينساب فى دمى ببطء ومع حركة السائل

في الدم كنت أحس بشيء كالنضارة ، انتعاش غامض . مثل ارتجاف الأوراق الخضراء في ندى الربيع ، يقظة .. انتفاضة .. نشوة .. عنفوان .. تفتح مثل تفتح البراعم .

إحساس غريب طازج .

صبوة نحو كل شيء .

كان كل شيء يبدو في عيني متألفاً جذاباً .

هذا رحيق مستقطر من ينابيع السعادة .

ودقت ساعة الحائط الكبيرة .

وتذكرت الدقائق العشر .

كانت أمامي عشر دقائق لأكون جاهزاً لأتلقى الإشعاع .

وأفادتني معلوماتي الطبية وخبراتي في المقاييس المترية للدماغ في ضبط برآجل الجهاز وروافعه الدقيقة وفي توجيه أنابيب الإشعاع الثلاثة إلى أماكنها المضبوطة من رأسي ، بحيث تلتقي حزم الإشعاع عند مركز المخ في الجسم الصنوبري .

وأدبرت مفاتيح عدادات الفولت والأمبير .

لم يبق إلا أن أضغط على المفتاح الأحمر فتبدأ النهاية .

وبشوق لا حد له .. وكأني ألمس شفتي أجمل امرأة .. ضغطت على المفتاح .

وتوهجت أنابيب أشعة المهبط بوهج خافت وارتفع أزيز مكتوم .

٩

كان ما حدث شيئاً لا يمكن وصفه

كل قاموس الكلمات لا يسعني .

حينما أقول إن الفزع استولى عليّ .. فإنه ليس الفزع المألوف الذي

نعرفه ، ولكنه فزع آخر لا اسم له .

فزع أقرب إلى تبخر الذهن وتطاير العقل ، وكأنما قد فتح ستار فإذا عالم

محيف ، تيه تضل فيه الحواس .

سماء حمراء غبراء تلف كل شيء في غيبتها .. أرض تختلط في ملامحها

ظلال أبحر عديدة وجبال وأودية ، مدن عتيقة ، وشوارع مبلطة ، وحوار

مسقوفة . وناس في ملابس تاريخية ، وأصوات مختلطة .

وأصابني هذا الانتقال المفجائي بالتشنج فانعقد لساني وفقدت النطق .

وفقدت الحركة ، وتحولت إلى عينيْن محمليقتين مثل حفرتين من جبس تنظران

في فراغ .

ولكن بمضى الوقت بدأ يسيطر علىّ شعور آخر مختلف تماماً عن الشعور الأول .

بدأت أشعر أن هذا العالم الغريب الذى أزيح عنه الستار ليس غريباً تماماً . وإنما هو عالم مألوف إلى حد ما .. أستطيع أن أعرف فيه على ملامحه .. عالم أصيل حقيقى .. أكثر واقعية من عالمنا المألوف .

بل إنى لأكاد أسمى الأشياء أمامى بمسمياتها .. وأكاد أستوقف الناس الذين يهرولون فى مواكب لا حصر لها وأناديهم بأسمائهم .

هذا عالم أعرفه .. وناس أعرفهم .

هذا عالم عشته .

بماذا أصفه لكم ؟

إنه أشبه بعالم متداخل .. تتداخل فيه الصور وكأنها صور شفافة مرسومة فوق زجاج ، وموضوع بعضها فوق بعض .. تشف كل صورة عن الصورة التى تحتها .

كل شخص يشف عن شخص آخر بداخله .. وهذا الآخر يشف عن شخص ثالث ورابع وخامس إلى ما لا نهاية .

وبمثل ما تتداخل الصور تتداخل الأصوات والألوان .. وتتداخل الحوادث .. وتتداخل الفترات الزمنية .. وتتداخل الأحقاب والعصور فى عوالم مزدحمة كأنها الحشر .. وبرغم ذلك فهى لا تختلط على العقل وإنما تبدو مميزة متباينة .. وأعجب من هذا أنها تبدو مفهومة .. وطبيعية .

وكل فرد فى هذا العالم لا يبدو فرداً واحداً .. وإنما يبدو ألوفاً مؤلفة من

الأفراد والشخص ، مثل الصور المكررة فى شريط سينمائى منظور إليه بالعين المجردة .

إن ما تراه العين فى هذا العالم ليس الفرد ولكن تاريخه .. إنها ترى حجمه وزمنه .

والزمن فى هذا العالم ليس يدرك بالبداهة .. وإنما هو بعد حقيقى تراه العين .

وهو ليس عالماً خرافياً ، بل هو عالم حقيقى .

عالم يعرفنى كما أعرفه .

هذا واحد فى الزحام اللانهاى ينظر إلىّ ويتسمم .. وينادىنى باسمى « إيزاك » .. نعم هذا هو اسمى « إيزاك » .. أنا أعلم جيداً أن اسمى « إيزاك » .

وهانحن نذهب معاً إلى حانة تحت ربيع قديم لنسكر .

الحانة أعرفها ، والمكان أعرفه ، والساق أعرفه ، والكل يتسمون فى وجهى ابتسامة الألفة والعشرة الطويلة .

وصديقى « ذكران » يتحدثنى عن الجارية التى اشتراها من سوق النخاسة . ويحدثنى عن رائحة عرقها ، وعن فخدها الممتلئ ، وأنا أضحك ، وأشرب ، ويحىء الشواء ، والتوابل ، وصديقى يقول : ذق من هذه التوابل .. إنها من توابل البصرة اللذيذة .

وعلى باب الحانة نسمع صوت ترس وزرد وضليل أسلحة .. ثم صرخة .. وأنين مجتئق .. وخطوات مسرعة .

ونقوم ونحن نترنخ .

وعلى باب الحانة نجد فارساً مذبحاً يلفظ آخر أنفاسه .

وأميل عليه وأضع يدي على قلبه .

وأرفع يدي الملوثة بالدم لأجد على رأسي جندياً مدحجاً بالسلاح يقول

.. إيزاك اللعين .. ياقاتل .. يداك تقطران دماً .

وأتلقت حولي .

لقد فر صديقي بجلده .

- إيزاك اللعين .. ياتاجر السم .. يالجنة أهل بغداد !

- أنا لست تاجر سم يا صديقي ، سامحك الله .. أنا تاجر عقاقير

- أهى عقاقير . أم أحجبة أم رق مسحورة باكافر يانجس .

- مالى أنا ومال السحر .. اتركني يرحمك الله .. أنا رجل فارسي غريب

ولست من هذه البلاد .

- الليلة نحل ضيفاً على سجن القداحة يأبها الفارسي الغريب وغداً نقف

أمام القاضي العادل « أبو قطافة » وبعد غد تذهب بإذن الله إلى القرافة .

- أنا برىء والله العظيم .

- بأى عظيم تقسم أيها الكافر .

- أنا برىء ياناس .

- يا فارسي يانجس .

- أنا برىء يا خلق .

وأصرخ فيه وأقبل يديه وقدميه وأنا أرتجف رعباً .. ولا فائدة .

وفي سجن القداحة أقضى الليل في الظلام والرطوبة والبرد الذي يتخلل

نظام . ومن حولي ديب هوام . وحفيف أشياء ترحف .. وأصوات

سعال .. وحشرجة ناس تموت .

وفي الصباح أقف أمام القاضي أبو قطافة .. ويشهد الجندي شهادة عيان

بأنه رآني أقتل .. ورأى يدي مخضبتين دماً .. ويحكم القاضي على

بالإعدام . ويضرب السياف عنق أمام بوابه « أمية » .

وأموت .

ولكني لا أنتهي .

وفي هذا العالم الغريب لا أحد ينتهي ، الكل يولد من جديد ويعيش

حياته مرات لا نهائية .

فأنا مرة أخرى في دير البلح في صحراء سيناء .. الأسقف « حنين »

الأب الطيب الذي يفيض قلبه محبة .. حياتي صلاة وتعبد .. وطعامي من

التمر الجاف والشعير .. ونهارى الطويل أقضيه في التأمل وسبحات الفكر ..

والناس يسعون إليّ من أطراف الأرض لأمنحهم البركة .

يا لها من حياة كلها سماح !

لا .. لم أكن أحلم .

وحينما ضرب السياف عنق أمام بوابه « أمية » لم يكن ما شعرت به

كابوساً ، لقد كنت أعيش وأموت .. وكانت حياتي حقيقة ، وكانت آلامي

واقعاً .

وفي تلك اللحظات حينما كنت أتذكر نفسي - أنا الدكتور داود -

كانت هذه الذكرى الشاحبة هي التي تبدو لي كالحلم ، يا لها من رؤى !

عشرات المرات أكتشف نفسي في عشرات الأماكن بعشرات

الأسماء .. وفي كل مرة أخرج إلى الدنيا بشخصية مختلفة وكأني إنسان جديد كل الجدة .

الزمن جميعه أصبح ملكي وكأنه بويينة فيلم أتفرج فيه على جميع اللقطات التي أخذت لي في جميع الأوضاع والأسماء .
مئات السنين عشتها .. وعانيتها يوماً يوماً .. كل يوم له نصارته وحلاوته ومرارته .. وكأنه أول وآخر يوم في العمر .

قابلت « ماتيلدا » الجميلة ذات العيون الخضراء في سوق قرطبة ذات مساء وكانت تحمل سلة بها تين .

وتحت ضوء قمر أبريل الدافئ الحنون سرنا متخاصرين .

تحمل الأنسام وشوشاتنا .

مأخلى القبله المختلصة !

ولسة الأنامل المرتجفة حينما تعثر على بعضها .

وذلك الحذر والدوار .

وملمس الشعر ذى الجدائل .

ورائحة الطيب .

وهمس الحنان .

ماذا تفعل ظبه السيف حينما تطعن قلباً أحب وعشق ؟ لا شيء ، لقد أحب وعشق .. لقد عاش ملء وجوده .. الموت لن يسلبه شيئاً .

إننا نفق من ثروة أبدية لا تنفذ .

إن عمرنا ملايين السنين .

عمرنا من عمر النجوم .

نحن لا نفقد شيئاً ، ليس هناك ما يدعو للعجلة ، ولا للحسرة .
ولا للندم ، فالعمر طويل .. طويل أبدي . والفرص لا نهائية .
كنت وأنا طفل أحلم بأنني أقود الجيوش ، وأفتح الأمصار والأقطار ..
وكان قلبي يخفق طرباً وأنا أقرأ عن جينكيز خان وهانيبال والإسكندر ..
وتعذبني الأماني والآمال .

لو أني فتحت كتاب حياتي .

لو أني عدت إلى الوراء ، ورأيت ما أرى الآن .

الحصار على أسوار عكا ، وغبار معركة « الحصن » .

وبريق السلاح الأبيض .. وأنا « ابن خزاعة » أحارب وظهري إلى

الحائط وليس في جسدي مكان لم يرشقه خنجر .. وبوابة الحصن تنهار تحت

طرقات المنجنيق .. وجيشنا المظفر يتدفق داخلاً كالطوفان .. أكاد أتحسس

مكان كل جرح في صدري وكتفي وساق .

والألم المبرح ينفذ في لحمي كالنار .. ترفه الطبول والأبواق وهتاف

الجنود ..

يا لها من دنيا مليئة !

كنت أفكر .. وأتأمل في شروء حينما خيل إليّ أن هذه الرؤى تبتعد

تغرق في ضباب كثيف ، وكأنما قد انسدت ستارة على المنظر كله فراحت

تحجبه رويداً رويداً .

وشيناً فشيناً بدأت أفطن إلى ملامح جديدة هي ملامح معمل دميان ..

والكرسي الذي أجلس عليه .. وأنايبب أشعة المهبط .. وجهاز الأشعة

بروافعه وعداداته .

لقد توقف الجهاز من تلقاء نفسه .. وأفقت تماماً ..
كان الجهاز مضبوطاً ضبطاً أوتوماتيكياً على مدة اشتغال محددة .
ونظرت إلى ساعة الحائط ، واكتشفت أن نصف ساعة قد مضت منذ
بدأت الجلوس أمام الجهاز .

معنى هذا أنى قد عشت مئات السنين في خلال هذه النصف ساعة ..
في خلال ثلاثين دقيقة عشت كل هذه الأحداث التى تملأ مجلدات ..
معنى هذا أنى كنت فى عالم آخر له زمنه المختلف ومعاييره المختلفة ..
عالم .. الدقيقة منه تحفل بأحداث سنين ..

إنه اكتشاف رائع .
إننا سجناء دقائق مفلسة يمكن أن نعيشها سنين خصبة غنية إذا عرفنا
كيف نخرج من أسرها لنخلق فى أجواء ذلك العالم الآخر .

كيف نستطيع أن نحقق هذا ؟ ؟ ؟
وكيف نستطيع البقاء فى ذلك العالم الآخر إلى الأبد ؟ ؟ ؟
سؤال لا شك أنه كان يشغل بال دميان فحاول أن يجيب عنه ..
واستغرق فى هذه البحوث الكيميائية محاولاً أن يصل إلى سر هذه الآلة
العجيبة التى اسمها المخ .

إن المخ أرشيف .. فهرس .. كما قال دميان .
سجل فيه محضر كامل بما حدث فى هذه الدنيا منذ بدء الخليقة مدوناً فى
الخلايا ومكتوباً على لفائف الأعصاب .

كيف تبعث هذا السجل الحافل . كما نستعيد ذكرياتنا اليومية فى عقولنا
كل لحظة .
هذه هي المعجزة التى حاول أن يحققها دميان باستخدام أكسيره

١٠

كانت أمامي مهمة عسيرة .
 أن أعرف تركيب الأكسير .
 وفكرت أن أبدأ في تحليله منهجياً .. ولكن العقبة كانت في كمية
 الأكسير الموجودة .. كانت كلها لا تزيد على عشرين سنتيمتراً .
 معنى هذا أن أكتفى بقطرات لأجرى عليها اختباراتي . وهذا عسير .
 وكانت هناك رغبة أخرى تنازعني .. هي رغبة حادة ملحة في الاستمتاع
 بهذه الكمية لأعيش تلك الحياة المسحورة وأعود إلى ضباب الماضي ولذاته .
 كانت كل قطرة في طياتها وعداً مغرياً بحياة طويلة عريضة حافلة
 بالأحداث .

وكانت هذه الرغبة تتحول عندي إلى شهوة أكالة مهيمنة متسلطة أقوى
 من شهوة المدمن إلى الأفيون .
 وكان الضعف والتخاذل يستولي عليّ كلما مددت يدي إلى أنبوبة

السائل ، وكنت أشعر أنها أثنى وأعلى وأقدس من أن تبدد في أي غرض ،
 ولو كان هذا الغرض هو اكتشاف حقيقة .. فأية حقيقة أثنى من الحياة ؟ !
 إن هذه السائل الثمين هو وعد بالحياة لكل من يتعاطاه .. وأية حياة ؟
 مئات السنين الحافلة بالمتع .

وأمام هذا الإغراء الأكال تحولت إلى إنسان سليل الإرادة . ممدود
 الذراعين في تسول خاضع خانع يشتهي قطرة ..
 في دمي وفي نخاع عظامي نداء ذليل ..
 وفي قلبي فرع يراودني .
 ماذا لو نفذ السائل ؟ !

كنت أشعر بسعار .
 سعار أقوى ألف مرة من سعار الجنس في جسد فحل مراهق .
 كراييج تلسعني .
 وتذكرت دميان .. وهو يتجول في المقابر مثل الخفافيش مصاصة
 الدم .. جرياً وراء هذه القطرات الملعونة .
 إنه الجنون .
 لقد أدركت سر نظرتة المجنونة وهو يقف أمامي في آخر مرة ينظر إلى
 السائل في يدي .

لقد كادت عيناه تخرجان من محجريهما .
 نعم .. لم يكن هناك سبيل إلى مقاومة هذه الشهوة المدمرة .
 ورأيت نفسي أتحرك في خطوات مخدرة إلى أنبوبة السائل ، وأملأ الحقنة
 وأحقن بها ذراعي وأنا أرتجف بنشوة غلابة .

وبعد الدقائق العشرة كنت أجلس في مكانى من الجهاز ، وأضغط على
المفتاح لأدخل مرة أخرى في تلك الغيبوبة المسحورة .
وكانت كراييج حقيقية هذه المرة تلك التى نزلت على ظهري العارى ..
وأنا أدير أنا وعشرات من العبيد رحي معصرة زيت ..
متى .. وكيف .. ولم .. جاءوا بي إلى ذلك المكان ؟
وفي أى عصر من عصور التاريخ الغابرة .
ومن هو السيد الذى يتخطر بيننا بحلة موشاة بالقصب ويدفعنى في
ظهري صارخاً .. اشتغل يا كلب .
ياإلهى .. ولكنى لست إنساناً ؟
أنا ثور وعلى عيني عصابة .
وأنا أخور كالثيران .
وأنا أمشى على أربع .
وأنا لى حوافر .
وأنا آكل التبن .
وجلدى سميك . وإحساساتى بليدة . ولا أشعر بفارق يذكر بين لدغ
كرباج وضرب عصاً .
واهتماماتى فى الدنيا قليلة . أن آكل وأشرب وأواقع الأنثى . أى أنثى .
وذاكرتى لا يعلق بها شىء . فأنا لا أذكر شكل أولادى وأنا لا أحزن
ولا أفرح . وإنما أجوع وأشبع على أكثر تقدير .
وبعد الشبع أنام .
وهو دائماً نوم عميق .

لا أحد منكم جرب نوم الثور .
لو جربتموه لتمنيتم أن تكونوا ثيراناً .
إنه لشيء فريد . ذلك النوم الذى يتحول فيه الواحد منا إلى قالب
طوب .
إن قلوبنا تقشعر حينما نتصور ذبح ثور . ولكنه ليس أمراً مؤلماً بالقدر
الذى نصوره .. إن ألم الضرس أشد منه .
إن ما أحسست به ذات يوم حول عنقى حينما ذبحونى كان ألماً بليداً لم يدم
إلا فترة قصيرة .. ثم انتهى كل شىء .
لا لم ينته .. فلا شىء ينتهى فى ذلك العالم .. أبداً .
فها أنذا مرة أخرى أعيش .
لست ثوراً هذه المرة .
ولا أعرف بالضبط من أنا .
كل ما أعرفه أنى فى غابة ، وأن الغابة مليئة بالأشجار ، وأن الأشجار
هائلة الحجم ، وأن الأرض تغطيها المستنقعات .
مستنقعات .. مستنقعات فى كل مكان .
ولا صوت حولى سوى صوت الرياح .
والأمطار تسقط بغزارة ، والجو يقطر بالرطوبة .
ومياه المستنقعات دافئة ، ويخرج منها من وقت لآخر غازات فسفورية ،
وأوراق الأشجار غريبة الشكل أشبه بأوراق السرخس المنقرضة .. ولا توجد
مخلوقات .
ولا شىء يذكر يحدث حولى .

والزمن يمضي بطيئاً بطيئاً .. وكأنه لا يوجد شيء اسمه زمن .
وعندى إحساس رهيب بالخواء .

يا إلهي .. إني شجرة .

لعلها مئات السنين تلك التي كانت تمضي ، لأن ستار الضباب عاد
فانسدل على المنظر كله مؤذناً بانتهاء التجربة .
وبدأت أفيق من جديد على مكاني من الكرسي في معمل دميان . وقد
انقضت نصف الساعة .
كانت تجربة عجيبة .

* * *

تركت الجهاز ..

وجلست أكتب مذكراتي وأنا ألث خشية نسيان ما رأيت ..
كنت أريد أن أسجل كل دقيقة عشتها في ذلك العالم المسحور .
ولاحظت بجانب عيني وأنا أكتب أن السائل لم يبق منه إلا نصفه .
ولاحظت ملاحظة أخرى أفزعني .. أن النصف الباقي من السائل قد
تغير لونه من الأزرق إلى الأخضر .

ليس اللون فقط .. بل الرائحة أيضاً .

لم تعد له رائحة الثوم .

لقد أصبح شيئاً آخر .

لقد فات الوقت .. ولم يعد من الممكن معرفة تركيبه .

لقد تحلل إلى مركب جديد .

ولاشك أن خواصه قد تغيرت أيضاً .

وكان خاطراً مفزعاً أن أتصور أنه لم يعد فعلاً ، وأنه لم يعد من الممكن
أن يؤثر في المخ كما كان يؤثر في الماضي ، وأن العودة إلى ذلك العالم المسحور
قد غدت مستحيلة .

وما بقي لي من عمر سوف أقضيه سجين هذه الدنيا المفلسة .

لم يعد هناك مخرج .

لن أجد مهرباً من هذا العالم الغليظ .

لن أستطيع التحليق خارج الزمان والمكان .

كان تصديق هذا الخاطر شيئاً فوق احتمالي .

وأسرعت أملأ الحقنة وأحقنها في ذراعي .

كنت أريد أن أطمئن .

* * *

كانت هذه آخر ورقة كتبها الدكتور م . داود في مذكراته .. فقد عثر
عليه بعد ذلك بساعات ميتاً في معمل دميان .

وكان المعمل يحترق إثر شرارة كهربائية مجهولة المصدر ، وكل الأجهزة
قد اشتعلت فيها النيران .. لم تبق منها إلا هياكل فحمية .

وقال الطبيب الشرعي الذي فحص البقايا المحترقة في تقريره عن
مذاكرات الدكتور م . داود .. إنها مذاكرات عجيبة .

وحينما سأله وكيل النيابة :

- ماذا تعني بقولك إنها مذاكرات عجيبة ..

ظهرت علامات الحيرة على وجه الطبيب وأردف قائلاً :

- كل ما هو مكتوب في هذه المذاكرات عن الجسم الصنوبري .. وعن

الحيوية في : البراعم ، وفي خلايا الجنين ، وفي غدد العنكبوت
والأكتوميسين ، يمكن أن يكون صحيحاً من الناحية العلمية ولكن .
- ولكن ماذا ؟

- ولكن الأمر كله يبدو غير معقول . هل يمكن أن تتصور أنك تعيش
حياة أبدية ؟

وبدا الارتباك على وجه وكيل النيابة وأجاب في صوت خافت .

- نعم إنه شيء غير معقول . إنه الجنون بعينه .

ثم أردف وقد خفت صوته أكثر .

- ولكن . من يدري . وهل نعرف نحن كل شيء في هذه الدنيا .. إن

كل ما نعيشه بضع سنوات في زمن لا أول له ولا آخر .

ماذا نكون نحن في عمر الدنيا حتى ندعى الإحاطة بكل شيء . هذه

دنيا كلها طلاس .

كلها طلاس .